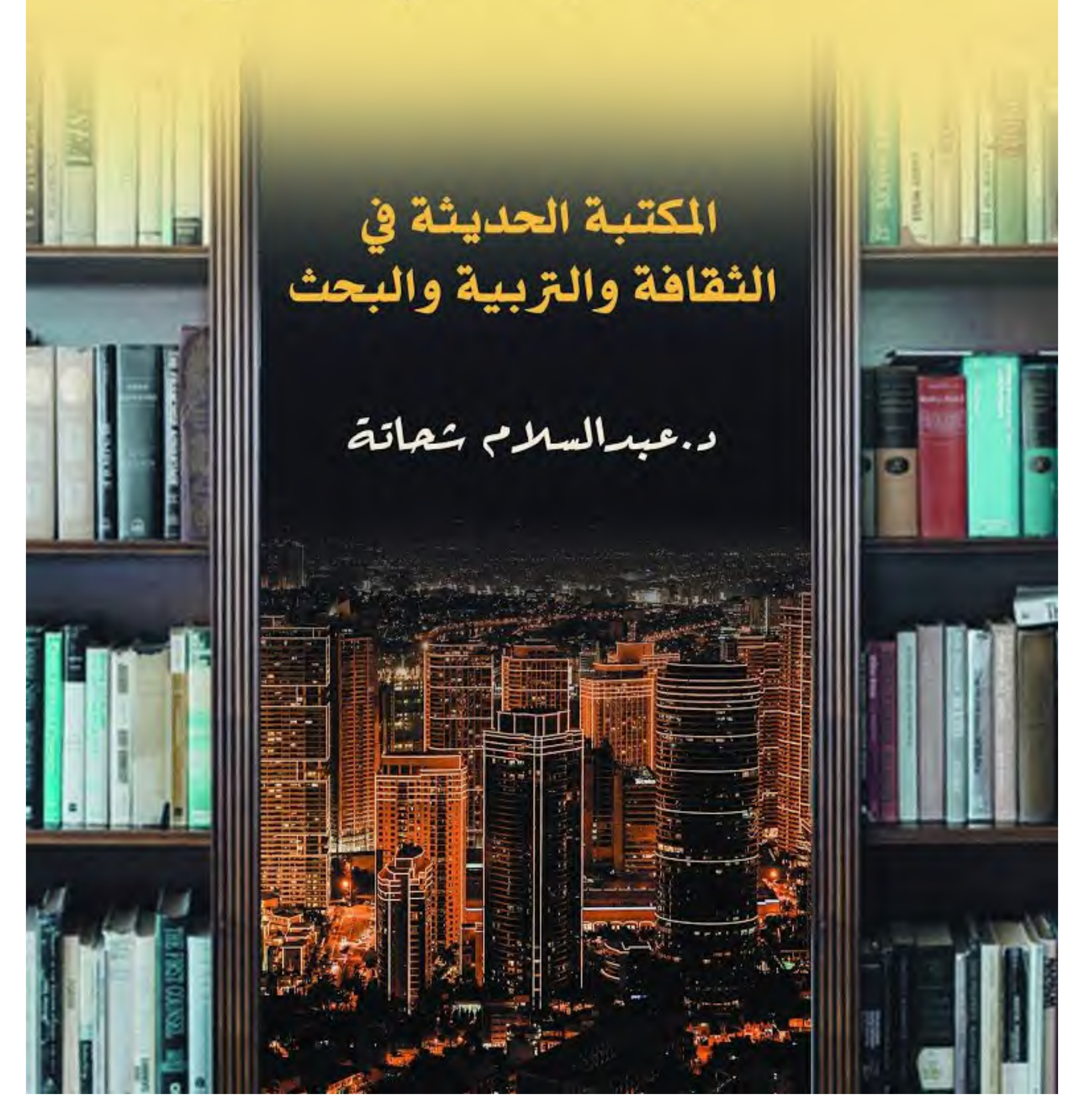
المكتبة والمجتمع



المكتبة والمجتمع

المكتبة الحديثة في الثقافة والتربية والبحث

تأليف

د. عبد السلام شحاتة

الكتاب: المكتبة والمجتمع (المكتبة الحديثة في الثقافة والتربية والبحث)

الكاتب: د. عبد السلام شحاتة

الطبعة: ٢٠٢٢

الطبعة الأُولى: ١٩٤٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

شحاتة، عبد السلام

المكتبة والمجتمع (المكتبة الحديثة في الثقافة والتربية والبحث) /

د. عبد السلام شحاتة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٣٠٣ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٦٦٣ / ٢٠٢١

المكتبة والمجتمع

المكتبة الحديثة في الثقافة والتربية والبحث



الإهداء

إلى أستاذي الدكتور علي عبد الواحد وافي..

أستاذ علم الاجتماع بجامعة فؤاد

المؤلف

هذا الكتاب

"أيها الرفاق،

ليس هذا بكتاب،

فمن يتأمله،

إنما يمس أعماق روحي!"

"والت هويتمان"

قيل أن الشيخ الرئيس، ابن سينا، كان مولعًا بالمعرفة، وأن من الأسباب التي هيأت له تحصيلها، أنه استطاع أن يتسلل إلى مكتبة أمير من الأمراء فالتهم ما وقعت عليه عيناه من مخطوطات التهامًا، أوحى له بنظرياته وآرائه فيما بعد.

ولكن عصرنا لا يحتمل إضاعة الوقت لتحين الفرص لمثل هذا الاختلاس، لأنه عصر السرعة، ولأنه عصر الديمقراطية التي من اهم واجباتها إتاحة الثقافة والمعرفة للناس، لتوفير الفرص المتكافئة بين الأفراد، حتى يبرز منهم من وهب الاستعداد الفطري أو الصبر والأناة، أو الشغف بالعلم. أو قل لينال كل فرد حاجته من المعرفة والعلم. فالتعليم حتى مقرر لا يختلس كما كان قديمًا.

وليس عصرنا هو عصر حب المعرفة وجمع شتات من ألوانها المتباينة بالقراءة فحسب، وهو بالتالي ليس عصر مجموعات الكتب، ولكنه عصر تنظيم للثقافة والمعرفة، وعصر تنسيق لمناهجها وأصولها، ولهذا وجدت المكتبات كمنهج وظيفته أن ينسق وينظم المعرفة والتربية والبحث.

وحكمة الشرق والغرب تزخر بالإشارة إلى الكتب، التي كانت منها المعجزات. فمعجزة الإسلام هي كتاب كريم، والكتاب المقدس يذكر مثلًا في العهد القديم، أنه ليس هناك من نهاية للكتب التي يُمكن أن تؤلف.

والغرب يقيم، على الكتاب، حضارته في شتى ألوانها، حتى ليقول كارليل معبرًا عن نزعة تمجيد الكتب "ليبارك الرب كادموس، أو أهل فينيقيا، أو أي مخلوق آخر يُمكن أن يكون قد ساهم في اختراع الكتاب، فإذا كان الناس في الشرق والغرب يمجدون الكتب فما بالهم لا يمجدون تنظيمها والعمل على تسيقها كمنهج للمعرفة؟

أما في الغرب فقد فعلوا، وكان لكارليل بالذات، وهو من أشرنا إلى قوله، آية مشكورة. أما في الشرق، فلا زلنا نؤمن بالكتب وحدها دون أن نؤمن بتنسيقها وأحكام منهاج للإفادة أمنها في حياتنا وتعليمنا.

وهذه الفصول غايتها التعريف بوظائف المكتبات لعامة المثقفين والمربين، والباحثين. فهي ليست بالعلاج الفني التفصيلي لفن المكتبات، الذي كتب فيه عشرات الآلاف من المجلدات في الغرب، وإنما هي

عرض اجتماعي لأهميتها في مختلف الأهداف. كما أنها تسعى للتعريف بفن المكتبات نفسه، مع ذكر مثل تلك المواد التي يتألف منها، وهو فن اختيار الكتاب.

وتلك الغاية واضحة في الأسلوب الذي عالجت به هذه الفصول فهي ليست دقيقة دقة البحث الجامعي، وأن لم تغفل الإشارة إلى أهم المراجع. كما أنها لا تقصر أفقها على المشتغلين بالمكتبات وحدهم. لأن غايتها أن تصبح هذهالمؤسسات عميقة لأثر في الحياة العامة وفي الحياة الخاصة كالجامعة والمدرسة ومعامل البحث والهيئات المختلفة. وقد أظهرتنا هذه الدراسة على أن المكتبات، وإن هيأت الظروف الاجتماعية لنشأتها وتطورها الديمقراطي فإنها لم تنهض بالفعل إلا على يد أعلام نابهين في أوطانهم، ممن بذلوا الجهد والمال لإنشاء هذه المؤسسات لخير مواطنيهم، وتحقيق ما تضمنه الوعي العام لمجتمعاتهم. كما أبانت عما تستطيع المرأة أن تساهم به في هذا الميدان التعليمي، فالمكتبات تدين لها في الغرب بالكثير. وما أجرى النابهين والنابهات يطرق هذا السبيل المبارك في الخدمات الثقافية لاجتماعية في بلادنا.

وهذه الفصول، وإن كتبت عن خبرة ودرس ومشاهدة فإن مادتها كانت جزءًا من فكري وعقلي، بعد أن تمثلها، فصارت مادة حية تنبض بحرارة الحياة. فلم تكن غايتي من التحصيل أن أقف عنده، وإنما أن أحيا وأعيش، هذا الذي أعرفه، ولو كان قليلًا.

وكم أحب أن تكون هذه الفصول الجزء الأول من سلسلة ينشرها المختصون على الناس، ولجهود تبذل في هذا الأفق ليتحقق بالفعل ما تستطيع أن تؤديه المكبات الحديثة من خدمات حيوية. ولا شك أن المجتمع، وأن غمط حقوق القائمين على المكتبات فيما مضى، فسوف يأتي في القريب العاجل يوم تقدر فيه جهودهم المبذولة المشكورة.

وإن تكن عيوب الكتاب أشواكًا للورد، فإن الورد الذي له شوك يُمكن أن ينظر إليه على أنه شوك له ورد، كما يقول شيللر!

وأما أيهما الشوك وأيهما الورد؟

فذلك حكم تتركه للقارئ الكريم.

عبدالسلام شحاته

٨ شارع صديق كرم

شبرا مصر

نوفمبر سنة ١٩٤٩

بروميثيوس الجديد

"تحارب المكتبة ذلك الإيمان الخاطئ الذي يوهم أن فترة التعليم تنتهي بانتهاء عهد المدرسة، لأنها تؤمن بما يناقض هذا تمامًا. كما تؤمن بأن خبر وسيلة لمعرفة شيء ما إنما تكون حينما يحتاج المرء إلى معرفة ذلك الشيء"

جيرالد مكدونالد

إذا كانت أسطورة بروميثيوس في القصص اليوناني القديم ترمز إلى أن الإسنان سرق مشعل المعرفة من الآلهة ونزل به من السماء إلى الأرض، فكذلك استطاعت الديمقراطية الحديثة أن تفعل ما يشبه ذلك في الكتب والمكتبات فهي لم تقصر خدماتها على العلماء والباحثين الممتازين فحسب، بل امتدت إلى رجل الشارع والطفل وربة الدار والعامل والصانع والزارع والتلميذ غير هؤلاء. ولا زالت تقدم خدماتها لكل منهم إلى جانب ما تقدمه إلى العالم الفذ، والأستاذ الزاهد في كل شيء عدا العلم والمعرفة.

ووجه الشبه واضح بين بروميثيوس القديم الذي سرق مشعل المعرفة وأذاع شعلتها بين الناس وبين الروح الاجتماعية الحديثة التي أتاحت الخدمات المكتبية لأبناء الشعب ولم تقصرها على العلماء وحدهم فنزلت بها من السماء إلى الأرض كما فعل بروميثيوس الذي يرمز إلى

تكريم الإنسان وجعله القوة الفعالة في هذه الأرض. ولن يضير المعرفة في شيء أن تذاع وتشيع وأن تكون إنسانية واقعية بدلًا من أن تبقى في كنوز الآلهة بين الأسرار المجهولة المقدسة، ولن يضير المكتبة أن تذيع المعرفة وتتيح الاطلاع لأبناء الشعب. وقد تتهم لذلك بأنها أصبحت شعبة ولم تؤد لأصحاب الأبراج العاجية وحدهم. ولكن من الخير لها أن تكون شعبية في عصر أسودة الديمقراطية التي تحاول أن تهب جميع ابناء وطنها الفرص التي يظهرون فيها نبوغهم ونواحي استعدادهم. فالديمقراطية نظام سياسي يتيح الفرص والامكانيات للملكات والمواهب على هذا النحو الإنساني الكريم العادل.

وقد كانت المكتبة في الغرب مكانًا مقدسًا أو هو بالمقدس أشبه، فلا يلجها إلا العالم والأستاذ ومن يدانيهما مرتبة يقرأون ويطلعون على ما فيها من كنوز نادرة المثال. وقد عُرفت قيمتها على هذا النحو منذ فجر التاريخ. فنجدها ملحقة بالمعابد المتعددة في الشرق بين آشور وبابل ومصر. وكان في معبد ادفو "بيت البردي، أو دار البردي على نحو ما نسمى الآن المكتبات بدور الكتب. وبلغ من قدسية الكتب في مصر القديمة أنها كانت مرتبطة بالعلاج الطبي والروحي كما نجد ذلك في معبد الرامسيوم.

والمكتبات سواء في التاريخ القديم أو الوسيط لا نخرج عن ارتباطها بالدين ورجال الدين ومن بعدهم العلماء الأفذاذ وحدهم حتى كان التطور الديمقراطي في القرنين الأخيرين أو في هذا القرن العشرين

على وجه خاص حيث اتجهت اتجاهًا شعبيًا تبعًا للتطور الاجتماعي في القرن التاسع عشر الذي قامت فيه الصناعات وازداد نفوذ طبعة للعمال وأبناء الشعب حمله كما هو في انجلترا، أو التي نهضت فيه الديمقراطية التي ترمي إلى تعليم المواطنين كما حدث في أمريكا. ولا زالت هذه النزعة هي الدافع الأول للعناية بشؤون المكتبات كما يذكر الأستاذ جدسنجينجز في ص ٣٢ من نشرة "الفرص المتكافئة، وهي من نشرات اتحاد المكتبات الأمريكي حيث قال "إن رفاهية البلاد الديمقراطية إنما تكون بتعليم المواطنين ونشر المعرفة وإذاعتها بينهم. ولما كانت الكتب هي الأداة الأصيلة للتعليم حيث تودع فيها المعرفة وتسجل، كان من الواجب على الدولة التي تنشد رفاهيتها ورخاءها أن تتيح الخدمات المكتبية لأبنائها جميعًا".

وقد سارت المكتبات في الغرب قدمًا نحو هذه الأهداف. وأما نحن الآن فلا زلنا نفكر في المكتبة تفكيرًا أقل تقدمًا من الغرب. فما المكتبات عندنا ير "دور للكتب"، وما الموظف القائم بشؤون هذه الدور غير "الأمين" وما الزائر أو القارئ أو المستعير إلا شخص يلح في طلب المعرفة على حساب الدولة. ومعنى ذلك أنه يحب معاملته بكل حزم فنأخذ المواثيق والعهود عليه حتى لا نضيع الأموال العامة هباء، ومعناه أيضًا أن المكتبة ما هي إلا خزانة للكتب، وما القائم بالأمر فيها إلا خازن كل وظيفته أن يحرس الكتب ويحميها من القارئ المغتصب الذي يذكر المكتبة بسرقة بروميثيوس للمعرفة من الآلهة في الأسطورة القديمة! والفصول التي أسوقها للقارئ هنا إنما أنشد وارمي من ورائها إلى بيان

وظيفة المكتبة الاجتماعية وأثرها في الجماعة والتعليم من ناحية وبيان ان مهمتها ليست مجرد خزن للكتب والحرص عليها من ناحية أخرى.

إن المكتبة ليست كتبًا. وليست وظيفتها خزن الكتب، وإنما هي اليوم فن يقوم على علوم وفنون متعددة وما الكتب إلا وسائل لغايات تربوية وتعليمية، بل هي ليست بالوسيلة الوحيدة التي تستخدمها المكتبة لتحقيق هذه الغايات. فليس العمل في المكتبة هو خزن الكتب وللقيام عليها في حراسة صارمة، وإنما هو عمل ثقافي تربوي عظيم الأثر جليل الفائدة يجب أن يقف القائم عليه على اصوله وأهدافه وتفاصيله. ومن ثم فليس القارئ أو الزائر هو من جاء يغتصب أو ينال ما ليس حقًا له، بل إنه على العكس جاء لينال حقًا من الحقوق التي يجب أن يتيحها له الوطن. وهذا واجب أساسي للمكتبات حتى أن المكتبة تقيس نجاحها بعدد من وصلت إليهم من الأصدقاء وبعدد ما أعارتهم من كتب، وبمدى ما من الكتب وغير الكتب مما تملكه المكتبة من وسائل التربية الاجتماعية الحرة، ولذلك كان من الضروري أن يعتبر القارئ والمجتمع الذي قامت فيه المكتبة عنصرًا من أهم العناصر التي توجه سياستها وتكيف اتجاهاتها في اختيار الكتب وفي أنواع الخدمات الأخرى سواء أكانت خدمات مراجع واستعلام أم خدمات أطفال وقص القصص عليهم وإذاعة أحاديث لهم، أو في المحاضرات أو البرامج التعليمية أو برامج الموسيقى والأفلام والمعارض، أو الخدمات التي تقوم بها المكتبات في الأندية الثقافية والاجتماعية والمدارس والمستشفيات والسجون، أو الخدمات التي تصل إلى الجهات البعيدة من بلاد صغيرة مجاورة وقرى

هاجعة في صميم الريف، وكل ذلك طرف مما تقوم به المكتبات الشعبية في الغرب.

ومما يدخل في تقدير المكتبة ورسم سياستها القارئ وبيئته وحالتها الثقافية وتكوينها الاجتماعي والاقتصادي ونوع العمل السائد والتقاليد المتبعة الجارية والمؤسسات الأخرى التعليمية والمدنية والإصلاحية ويدخل في هذا التقدير كذلك المكتبات الأخرى الموجودة في المؤسسات والشركات والمدارس وغيرها في الجهة.

وفي الولايات المتحدة اليوم ما يزيد على ستة آلاف مكتبة شعبية وستين الف مكتبة في المدارس وألف وستمائة مكتبة في الكليات والجامعات وما يقرب من ألف وخمسمائة مكتبة في المؤسسات الخاصة كالسجون والشركات ودور الصحف والجمعيات.

وبلغ ما أنفق على المكتبات الشعبية وحدها في الولايات المتحدة فيما بين عامي ١٩٢٦ و١٩٤١ ما يقرب من ستة ملايين من الجنيهات.

وبلغ ما أضيف إلى هذه المكتبات في المدة المذكورة ما يقرب من خمسين مليونًا من المجلدات، وبلغ عدد ما استعير من هذه المكتبات الشعبية في نفس الفترة ما يقرب من مائتي مليون كتاب.

هذا في المكتبات الشعبية وحدها، وهي غير مكتبات وحكومة الاتحاد ومكتبات الولايات الحكومية ومكتبات المدارس والجامعات والمكتبات الملحق بالمؤسسات الخاصة(*).

(*) هذه الاحصائيات كانت وقت ظهور الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩٤٩ .

وأريد أن أتساءل: اين نحن من هذه النهضة الضخمة الوطيدة العمد؟ ولكني لا أنكر ما يجول في الأذهان من اعتراض على هذا التساؤل بما معناه: وأين نحن من أمريكا؟

وإذا عرفنا أن الأمريكيين قوم عمليون لا يضيعون الوقت والجهد والمال عبثًا، وإذا عرفنا كذلك أنهم سبقونا في مراحل الحضارة الحديثة بأشواط بعيدة ومن الواجب علينا أن ننهض نهضة وثابة كما نقطع الأشواط لنحقق معاني التحضر في لابدنا، أقول إذا عرفنا كل ذلك لما حق لنا أن تعترض على ذكر حقائق عن بلد آخر لم يكتف بما وصل إليه بل ما زال ينادي بوجوب مضاعفة الجهود حتى تسهل الخدمات المكتبية لعدد أكبر بحيث يُمكن أن يصدق عليها ما نتصوره عن شعلة المعرفة التي هي جديرة بأن تشعل النار المقدسة فيما لا حصر له من المشاعل. ذلك أنه متى وجد فهم صحيح لهذه الخدمات ونهضت بالفعل مؤسسات معينة لتحقيق الغايات فإنه لا حد لما يُمكن أن تؤديه في الغد، ولا حصر لعدد المكتبات التي تنشأ في المستقبل. فالعبرة هي معرفة وفهم الصول والغايات التي تقوم عليها المكتبة في المجتمع. ولذلك عنيت بنشر هذه الفصول المتواضعة التي تتحدث عما تستطيع المكتبة أن تهبه للناس أفرادًا وجماعات بل المجتمع الإنساني عامة حتى يستطيع التفاهم والتعاون على أسس مشتركة من التفكير وتبادل وجهات النظر المختلفة التي تتولى المكتبات إيجادها وتحقيقها لأنها ذات غايات انسانية. وأكبر دليل على أهميتها من الناحية الدولية ما تقوم به مكتبات هيئة الأمم من مشروعات لتبادل المعرفة في النواحي العلمية والإنسانية

وتبادل وجهات النظر بصددها وإيجاد أسس فكرية مشتركة تكون دعامة لإيجاد التعاطف والمشاركة الوجدانية بين الناس.

المكتبات الشعبية

لعل أروع مظهر إنساني في مكتبات الغرب هو المكتبة الشعبية أو المكتبة العامة في بلدة أو مدينة. وتكون عادة من أثر مصلح اجتماعي قدر للمكتبات قيمتها ومغزاها. مثل تلك المكتبات المتعددة في أنحاء أمريكا وكندا وبريطانيا التي تبرع لها كارتيجي وكثير غيرها في أنحاء العالم الغربي.

وكثيرًا ما نجد المكتبة قد أنشأها أبناء المدينة أو البلدة بواسطة النوادي الاجتماعية الإصلاحية كأندية النساء وغيرها فهي التي عملت على إتاحة هذه الخدمات في البلدة أو المدينة مستعينة في ذلك بأخصائي المكتبات في حكومة الولاية أو الإقليم. وهؤلاء يعملون على مساعدتها ماليًا وفنيًا حتى تقوم المكتبة على دعامة وطيدة البناء.

وليست المكتبة الشعبية بمجموعة من الكتب ولا بمخزن لها، وإنما هي المركز الثقافي الذي يمد الفرد بالمعرفة عن طريق الكتب والاستعلام، كما يمد للطفل والتلميذ وربة الدار والأستاذ وغير هؤلاء، ممن يتباينون في السن والمهنة والدين والجنس.

ولو هبطت إلى بلدة من تلك البلدان وسألت سائق السيارة أو عامل المطعم أو الصبي الذي يبيع الصحف عن المكتبة لعلمت أن هذه المؤسسة معروفة عن الجميع. فهي بحق محط الأنظار وقبلة الناس، وهي

مركز الثقافة والإرشاد الثقافي، أو قل هي المنتدى الاجتماعي الثقافي للبلدة.

بناء بسيط جميل له نوافذ زجاجية لعرض الكتب الجديدة أو كتب عن موضوع معين ملائم لمناسبة وطنية أو إقليمية أو ثقافية بحيث يراها الناس في الشارع. وأما الباب فهو في مستوى الشارع كذلك لا تشعر برهبة ولا بمشقة في أن تلجه، فإذا ما دخلت رأيت على أحد الجوانب مكتبًا صغيرًا لإجراءات الاستعارة، وكل مواطن في الولايات المتحدة، مهما كان سنه ويستطيع أن يكتب اسمه، له حق استعارة الكتب. فكل الإجراءات التي تتخذهما أن تكتب اسمك وعنوانك وصناعتك وميولك وتنتهي من هذا في دقيقة فتتسلم منك الفتاة المكلفة بالأمر البطاقة، وما هي إلا حركة يسيرة من يدها حتى تكون الآلة قد سجلت رقمًا لبطاقتك وأصبحت بذلك من أصحاب الحقفي الاستعارة من هذه المكتبة.

هذا مهندس كان قد استعار كتابًا جاء ليقف على الجانب الآخر من المدخل، حيث يوجد مكتب آخر ليرد إليه الكتاب في أقل من دقيقة ثم يدخل بهو المكتبة ليستطلع ما لديها من كتب عن الهندسة المائية، وها هو ذا سائق سيارة يعيد كتابًا عن الراديو ويدخل ليستعير كتابًا آخر عن التليفزيون، وتلك سيدة جاءت في صحبتها فتاة صغيرة لتسأل عن كتاب يتضن قصة للأطفال تقرأ بصوت مسمون لطفلتها البالغة اربع سنوات من العمر، وما هي إلا لحظة حتى يدخل صبيان يسألان عن كتاب عن معسكرات الرحلات .. أما هذا الرجل الأصلع فلا يسأل أحدًا وإنما

يتجه إلى حيث غرفة المجلات والدوريات التي تبحث في التجارة والأسعار والأعمال. ولسوف يجد في تلك الغرفة من المقاعد المريحة والجو المكيف الهواء ما يغريه باستقصاء الأسعار وتطورات سوق الفراء، وسيجد في جوها اللطيف ما يجعله يحتمل أنباء الخسائر!...

وهذه مكتبة أخرى أضخم وأبعد شهرة وأكثر ثراء من المكتبة الصغيرة التي سبق زيارتها، ولجنا الباب فوجدنا –كما وجدنا آنفًا – مكتبي الاستعارة في ناحية واسترداد الكتب المعارة في ناحية أخرى من المدخل .. لنتركهما ولنسر خطوتين إلى الأمام .. هذا بهو جميل أنيق فسبح متعدد الأقسام كثير الحركة مما لا يجعل لاتساعه رهبة ولا كآبة .. هذا مكان للاستعلام العام .. فتاة على مضد تبتسم وتقول – أأستطيع أن أودي لك خدمة؟

قلت – أريد كتابًا عن العبقرية فأين أجده؟ وأريد عنوان صديق لي في جامعة كاليفورنيا.

قالت – أمامك الفهرس العام للمكتبة فابحث فيه تحت مادة عبقرية، لأن بطاقات الفهارس عندنا تشمل اسم الكتاب واسم مؤلفه وتشمل موضوعه، فإن كنت تبحث عن كتاب تعرفه فانظر حت عنوانه، وإن جهلت العنوان فابحث تحت اسم المؤلف، وإن جهلت الجميع فابحث تحت اسم الموضوع فإن لم تجد العنوان الذي تطلب فسوف تجد إشارة إليه تحت اسمه في عنوان آخر .. ها هو ذا الفهرس، وما دمت تريد كتابًا عن العبقرية فابحث تحت مادة "عبقرية" .. ها هي ذي

بطاقة بعنوان العبقرية .. ولكنها تشير إلى أن الكتب التي تبحث في الموضوع تحت مادة "علم النفس" فعليك ببطاقتها .. وخذ رقم الكتاب الذي تريد واطلبه.

ووجدت ما أريد فقلت – ولكني أضعت من وقتك شيئًا كثيرة.

فأجابت – إن من واجبي أن أرشدك إلى استعمال الفهرس حتى تعتاد البحث بنفسك، ومن حقك عليّ أن أرشدك إلى هذا وغيره .. فأنت تريد عنوان صديق لك في كاليفورنيا ..

حسنًا! اذهب إلى قسم المراجع والاستعلام ها هو .. إنه أول شيء تلقاه على قيد خطوتين أمامك .. وهو في واجهة الاخل لأنه مكان الاستعلام عن كل شيء حتى عما في هذه المكتبة، وهذا الفهرس الذي تراه وإننا نتبع قسم الاستعلام.

وذهبت إلى حيث أشارت فوجدت الكتب العامة وأنواع الخدمات التي تكلمت عنها في فصل آخر من هذه الفصول وبحثت في دليل جامعة كاليفورنيا ودليل مدينة بيركلي التابعة لها حتى استطعت أن أعرف عنوان صديقي وبعد ذلك قلت – أنني أريد معرفة أقسام هذه المكتبة.

قالت السيدة القائمة على العمل – إن هذه مكتبة رئيسية ضخمة ولهذا فإنها تقسم إلى أقسام موضوعية: فهذا قسم الصناعات والفنون العملية والعلوم، وذاك قسم الديانات والفلسفة، وأما الثالث فهو قسم علم النفس والتربية، وهذا الرابع قسم التاريخ والتراجم والرحلات.

وإليك اقسام الآداب والفنون الجميلة وقسم القصص والأطفال وقسم المطبوعات المتعلقة بالإقليم.

ورأيت أن أزور هذه الأقسام التي لا يفصل بعضها عن بعض غير حواجز من الكتب. فكل قسم يُمكن تضييق مساحته أو توسيعها حسب الحاجة، أي أن التقسيم تقسيم مرن لا تقسيم مقفل. والمهم في هذا كله هو أن القسام قامت حسب حاجة المدينة وحسب مدى الإقبال على كل نوع من أنواع المعرفة، سواء في حجمها أو في قربها من المدخل.

فمما لا شك فيه أنه كلما كان القسم الأكثر استعمالًا قريبًا من المدخل كان أسهل وأيسر لأكبر عدد ممكن من القراء الذين ترعى المكتبة توفير ما يتصل براحتهم ومدى إفادتهم.

وكل قسم أعدّ بما يلائمه. فقسم الفنون الجميلة فيه التسجيلات الموسيقية والحجرة لسماعها وتسجيلات معارة من أندية موسيقية، كما أن هناك نظامًا خاصًا لوضع مجموعات الأسطوانات والكتب الكبيرة الحجم الخاصة بنماذج النحت والرسم، وهناك مجموعات دولية من التسجيلات، فلكل دولة بضع أناشيد وهكذا. ومن الممكن إعارة التسجيلات لأي شخص.

وأما قسم الآداب فيشمل مجموعات الشعر والتمثيليات، ومجموعات المقالات والنقد وتراجم الكتاب وكتب عن المسرح والسينما والراديو والإذاعة والمحاضرات العامة والصحافة، وكتب في

دراسة اللغات، ومجلات نقد الكتب والمجلات الأدبية، وتسجيلات صوتية لأعظم التمثيليات وهكذا.

وفي قسم علم النفس والتربية وجدت الكتاب الذي أريد على أرفف مفتوحة للجمهور، حيث الكتب موضوعة وضعًا مسلسلًا حسب نظام فهرستها. وبسرعة اهتديت إلى القسم الذي به الكتاب فلما وجدته رأيتني أنظر الكتب الأخرى، الموضوعة إلى جواره والتي تبحث في نفس الموضوع تبعًا لنظام التبويب الذي يقتضي ترتيب الكتب ذات المواضيع المتقاربة، متقاربة على الأرفف تبعًا لتقاربها في الموضوع. وأمكنني بهذه الطريقة أن أتصفح أكبر مجموعة من هذه الكتب وأن أغير رأيي في الكتاب الذي كنت أعتزم استعارته.

وفي الطابق الثاني وجدت الأقسام الأقل التصاقًا بجمهرة الزوار. فهذه غرفة من طراز خاص في أثاثها وترتيبها، وهي منتدى يعرف باسم منتدى "ادجار ألن بو" وهو شاعر أمريكي معروف احتفت به مكتبة المدينة التي اقترن باسمها باسم الشاعر فجمعت مؤلفاته في طباعتها المختلفة، وجمعت الكتب والمقالات التي كتبت عنه وما إلى ذلك. وهذا المنتدى هو النادي الوحيد في العالم الذي يشترك فيه من يعجب بالشاعر. ولعلك عرفت الآن أني أصف لك مكتبة "أينوخ برات" بمدينة بلتمور.

وفي الطابق الثاني وجدت أقسام المكتبة من فهرسة وتبويب إلى قسم اختيار الكتب وثالث خاص بالمكتبات الفرعية ورابع خاص

بالخدمات الخارجية في المدارس والأندية وغيرها من المؤسسات .. ولما ذهبت إلى حجرة الأخصائي الأول للمكتبة (المدير) وجدت حجرته منزوية بعيدة عن الجمهور، لأنها ليست حجرة وظيفية للخدمات المباشرة للناس كأقسام المراجع والأقسام الموضوعية الأخرى بل هي لا تتعلق بالمجهور إلا في حالات خاصة فهي المشرفة على الخدمات الداخلية للمكتبة.

ولما اقتربت من الباب وجدت لافتة كتب عليها "ادخل بدون استئذان" فلما قابلته وأطريت له ما رأيت. قال – هذه من آثار سلفي أما أنا فأتتبع خطاه.

فعرفت كيف يسير هؤلاء القوم قدمًا في مشروعاتهم!

وليس هذا التقسيم الموضوعي بالتقسيم الملائم لكل مكتبة، لأنه لا بد من وجود مجموعات ضخمة من الكتب في كل موضوع، وهذا لا يتيسر إلا في القليل النادر، وأما المكتبة العادية الشعبية فعبارة عن ركن للأطفال وركن للبالغين وما يتطلبه من خدمات الاستعلام والمراجع ويثيرها. والكتب فيها مرتبة حسب موضوعاتها المبوبة تبعًا لتقسيم عددي يعرف باسم تقسيم "ديوي" وهو أشهر نظم التبويب المعروفة في فن المكتبات.

وامتداد خدمات المكتبة عن طريق المحاضرات أو عن طريق مرشد القراءة، وامتدادها إلى الأندية والمؤسسات أمور جديرة بأن وليها بعض العناية فهي تقوم على أساس أن المكتبة ترمي إلى هدم الفكرة العتيقة

القائلة بأن الانتهاء من التعليم ينتهي بانتهاء المدرسة. كما أنها حاولت أن تؤكد بجهودها أن خير وسيلة لتعليم الشيء تكون في الوقت الذي يحتاج فيه الإنسان إلى معرفة ذلك الشيء.

ومن ثم تحاول المكتبة جهدها الاتصال بالناس بشتى الوسائل لتغريهم بالانتفاع بكتبها وبرامجها التي تنظمها للبالغين الذين يريدون إتمام تعليمهم بعد أن انقطعوا عنه منذ غادروا المدرسة. وكثيرًا ما أعانت المكتبات الشعبية أو المكتبات العامة على تكوين الملكات التي نجحت وكانت آية على مجد الإنسان في المخترعات. وفضل المكتبة الشعبية على أديسون غير مشكور في تكوينه ودراساته التي أدت إلى اختراعاته العظيمة. كما أن هناك عشرات العباقرة في مختلف نواحي الآداب والفنون ممن انتفعوا بالمكتبات في تكوينهم، وعشرات من المخترعين والأساتذة والشعراء والأدباء الذين نالوا الجوائز الشعبية كانت لهم مصباحًا هاديًا في طريقهم إلى المجد .. وكانوا فقراء غرباء لا حول لهم ولا قوة فوجدوا في المكتبة الشعبية الركن الشرق الذي يغذي القلب ويرفع للنفس وينير الفكر .. هؤلاء العباقرة الخالدون هم تلاميذ المكتبة الشعبية.

وإذا كانت المكتبة تعني بالقراءة وإشاعتها، فإنك تجد كثيرين كل همهم أن يفعلوا ذلك هربًا من الواقع وأملًا في الابتعاد عنه. وفي هذا الهرب نقص وضعف وخذلان لأننا يجب أن نواجه الحياة وأن تعالج الواقع، ولكن السياسة التي اتبعتها المكتبة الحديثة لتنظيم القراءة بإيجاد

جماعات مختلفة تقرأ كتبًا معينة لنقدها والتحدث عنها مكنت من إيجاد الحوار والمناقشة وتبادل وجهات النظر فيما بينهم. وبالتالي إلى مشاركة ثقافية لا يستطيع الفرد أن يحدها عن طريق آخر.

ولهذا فقد نظمت المكتبات في الغرب برامج من هذا النوع يساهم فيها من يشاء .. وقد تكون هذه البرامج منظمة لمدة طويلة لتعليم مهنة أو لدراسة مستمرة لفترة كافية لأن يكون الشخص خبيرًا بموضوع بعينه كما بينا هذا في مكان آخر من هذه الفصول.

وكل ما يُمكن أن يقال الآن أن المناقشات تكون وسيلة لتكوين الرأي السليم والاقتناع في جو من الحرية ليستمد قوته من وزن كل رأي وسبر غور كل نقد، فيتكون على الأيام رأي عام وتتكون أسس ثقافية وروابط فكرية بين المواطنين تكون دعامة القومية. وكثيرًا ما يساهم الأجانب في هذه الاجتماعات والمناقشات فيتسع المجال لإيجاد روابط عالمية إنسانية لا قومية فحسب.

وقد يقوم أخصائي المكتبة بالحديث عن موضوعات أخرى وتكون مجموعة من الكتب التي تعالج هذه الموضوعات معدة للإعارة لمن يحيون الاستزادة من الاطلاع. وليس من الضروري أن يكون ذلك داخل المكتبة فقد تمتد هذه الخدمات إلى الخارج كما قلت. وقد أدت هذه السياسة في كثير من الأحيان إلى انتهاز الأخصائي فرصة هذه المحادثات ليتكلم عن المكتبة كلمة خلال الحديث. وكثيرًا ما أدت هذه

الطريقة التي تبدو غير مقصودة إلى ازدياد نسبة رواد المكتبة وارتفاع نسبة القراءة.

وأما الأحاديث نفسها فكثيرًا ما أدت إلى نتائج ملموسة الأثر. ففي ولاية "لويزيانا" أدى برامج محاضرات ومناقشات عن هندسة البناء إلى ارتقاء مستوى المباني عما كان عليه من قبل، كما أدت محاضرات وكتب أخرى عن التمثيليات الممتازة إلى ارتقاء مستوى هذا للفن في البيئة المباشرة، إلى غير هذا وذاك من مئات الأمثلة التي تلمح في ضوئها نتائج هذا اللون من نشاط المكتبات في الغرب.

فإذا عرفنا هذا، وعرفنا الصلة بين المشتغلين بالمكتبة والجمعيات النسائية والإصلاحية والمدارس والهيئات الأخرى وإذا عرفنا ما تؤديه المكتبات من خدمات عن طريق الاستعلام والإرشاد عرفنا أنها بحق مركز النشاط الاجتماعي التي يتبلور فيها ويبدو جليًا للعيان.

وإذا كانت الجامعات اليوم والمدارس المنظمة البرامج يلتحق بها من يتفرغون لها، فليس معنى ذلك أن يهمل هؤلاء الذين يريدون إتمام تعليمهم. وإذا كان كثير من الناس فارقوا مقاعد التعليم لأنهم لم يجدوه شيقًا بل وجدوه سقيمًا بعيدًا عن الحياة، فإن المكتبة الشعبية تحاول جهدها أن تبين من الناحية الأولى أن التعليم لا ينتهي بانتهاء المدرسة، بل من الممكن أن يكون عن طريق المكتبة على نحو أكثر حرية، كما أنها تحاول من ناحية ثانية أن تبين أن خير المعرفة هي التي يحتاج المرء إليها حين يعوزه الإلمام بها، وحين يشعر بتفتح ذهنه إليها.

وإلى جانب هذا وذاك فإن تعويد البحث وتزجية وقت الفراغ على خير وجه ممكن من أهم الغايات التي تسعى المكتبات في الغرب إلى تحقيقها.

وهكذا نجد هذه المكتبات قد ساهمت على نحو ملموس في خدمات اجتماعية ووظائف ثقافية تربوية من الأهمية، بحيث لا يجوز اغفالها بعد أن أضحت ضرورية ضرورة المدارس نفسها فالمدرسة والمكتبة مؤسستان تعليميتان إحداهما للتعليم الرسمي والأخرى للتعليم الذي لا يتقيد بمنهج ولا برنامج، وتغلب عليه الصبغة الحرة بدلًا من الصبغة الرسمية في المدرسة. وإذن فمن ينكر على النساء حقهم في توفير خدمات مكتبية لهم هو كمن ينكر حق التعليم ويبعدهم عن مورد الثقافة.

فها نحن وقفنا على ألوان من نشاط المكتبة العامة،فهي ليست كتبًا تعار للخاصة، وهي ليست خزانة تحتاج إلى خازن، وهي ليست بعيدة عن القارئ وتعقد أمامه الأمور.

وإنما هي مؤسسة اجتماعية تتخذ الكتب وسيلة للتعليم، وهي مدرسة أو جامعة حرة والقائم عليها معلم ومرب يفهم واجابتها وغاياتها وتفاصيل العمل المؤدى إلى تحقيقها، وهي تجعل القارئ أساسًا في تفكيرها لأنها ترمي إلى خدمته فمن أجله قامت، وبماله أنشئت ... فالمكتبات ليست دورًا للكتب والقائمون بالأمر فيها ليسوا أمناء.

المكتبات الخاصة

ليست المكتبات الخاصة هي ما يفهم من مدلول الاصطلاح لول وهلة فهي لا تطلق على مكتبات الأفراد وإنما المقصود بها أن تكون غير شعبية أو غير عامة وذلك مثل مكتبات الجامعات والكليات والمدارس والشـركات والأندية والجمعيات والمعامل والمصانع والسجون والمستشفيات، فهي على الجملة المكتبات التي تخدم طائفة خاصة أو الملحقة بمؤسسة معينة أو التي تختص بموضوع معين مثل مكتبة "فواجر" التي تحتوي على أعظم مجموعة من كتب شكسبير،والكتب التي ألفت عنه بحيث تعتبر أعظم مرجع عن شكسبير الإنجليزي وهي ليست انجليزية بل هي أمريكية بمدينة واشنطجن. وقد أنشأها أحد رجال شركات البترول من ماله الخاص تقديرًا منه لذكرى الشاعر الخالد. ومثلها مثل مؤسسات أخرى قامت على أيدي أفراد رأوا إن يشجعوا العلم والثقافة بمالهم، وذلك في البلاد المادية الحضارة!

ولما كنا سنتحدث عن مكتبات الجامعات والمدارس في غير هذا المكان فلنتحدث هنا عن ألوان اخرى من المكتبات الخاصة. وإذا كنا نعني مكتبات التجارة والشؤون التجارية والأعمال فلن نجد اعظم من مكتبة إحدى ضواحي مدينة نيويورك وقد صارت مثلًا لهذا النوع من المكتبات وأعني بها مكتبة الأعمال بضاحية "نيووارك" التي تعتبر مركزًا للتجارة بفروعها المختلفة، كما أنها تعتبر مركزًا صناعيًا ممتازًا. وقد أنشئت منذ عشرات السنين على يد رجل من أعلام المكتبات هو "جون

كوتون دانا" مع شخصين أو ثلاثة وليس لي أن أحدثك كيف كانت ضئيلة الشأن في بادئ الأمر ثم أضحت علمًا في ميدان المكتبات التي تعالج الشئون التجارية والصناعية. وما كانت لتكون كذلك لو لم تكن الضاحية التي أقيمت فيها تجارية صناعية.

وأنك لواجد هناك نظامًا وخدمات لا تراها في الشرق، ففيها مراجع واستعلامات عن أدق ما يُمكن أن يستعلم عنه تاجر أو صانع أو من يمت إلى التجارة والصناعة بصلة، فهناك دليل المدينة ودليل المدن الأخرى والكتب السنوية للمنتجين والكتب السنوية لكل من يشتغل بالصناعة والتجارة، وهناك إحصاءات عن تجارة العالم وأسواقه وتطورها وأخرى عن الصادرات والواردات، إلى جانب الخرائط التي تبين شؤون الإنتاج والصناعات والمواد الخام، ونشرات تسجيل أسعار السلع والمنتجات وأخرى تسجل الاختراعات والتحسينات التي أدخلت على كل باب من أبواب الصناعة والفنون العملية. كل ذلك إلى جانب النشرات العالمية والدولية التجارية والصناعية، وفهارس هذه النشرات والاحصاءات والسجلات، وكتب عامة للإرشاد في كل هذه الأبواب. وأنك لا تجد هذه الكتب فحسب، بل تجد كتبًا أخرى ليس ما ذكرت إلا مثلًا مما يجب أن يذكر.

والأهم من هذه الكتب بقضها وقضيضها هو الخدمات التي تؤدى والمطالب التي تجاب عن كل استفهام واستعلام تقوم به فتيات ونساء وشباب وكهول عركوا هذه الكتب وتمرسوا في اختبار هذه المراجع،

بحيث يستطيعون أن يدلوك عما تريد في أقصر وقت ممكن. فالخبرة والمران في شؤون المراجع والاستعلام من الأمور الهامة ومن الشروط الرئيسية التي لا تكون بدونها خدمات بجدية. ولو أنك أتيت بهذه الكتب جميعًا في أيد لم تمارس البحث فيها ولم تدرس خصائص كل منها لما استطعت أن تبلغ مما تريد شيئًا.

وقد زرت بضع مكتبات في بلادنا ووجدت فيها كتبًا قيمة تعتبر من عيون المراجع، ولكني وجدت القائمين بالأمر عليها لا يستخدمونها ولا يفيدون منها، لأنهم لا يعرفون من أمرها أكثر من أنها كتب من ضمن الكتب التي كتب لها أن تخزن وأن تحكم الأبواب عليها خوفًا من العبث بها لو حرصًا عليها من الضياع.

وأساس العمل في المكتبات الخاصة هو توفير المعلومات المطلوبة بأسرع ما يُمكن . فإذا كانت المكتبة تابعة لشركة من الشركات وطلب منها أن تجيب عن سؤال يتعلق بإحصاء أو إنتاج أو أسعار فيجب أن تكون الإجابة سريعة حاسمة، لأن أرباب الأعمال الوقت لديهم من ذهب، ولا طاقة لهم على احتمال البطء. ولذلك كان أهم ما يحتاج إليه الشخص الذي يعمل في هذه المكتبات الخاصة أن يكون وثيق الصلة التي تمت إلى هذه الأعمال بصلة وكثيرًا ما يحتاج الأخصائي في المكتبات الخاصة إلى الاستعلام من مجموعات قصاصات الجرائد أو النشرات اليومية التي جمعها في ملفات خاصة بوبها تبويبًا موضوعيًا يتفق والاصطلاحات المستخدمة في الشركة أو في المؤسسة. بل لا أغالي

كثيرًا إذا قلت انه يضطر إلى الاتصال بالخطابات والرسائل والتليفون، بل ويستخدم البرق كيما يأتي بالإجابة المطلوبة عن استعلام يعينه ما دام يعرف مصدره.

والأفراد العاديون لا يستطيعون في كثير من الأحيان القيام بالإجابة عن الاستعلامات بأنفسهم لأنهم إذا توفرت لهم الخبرة فكثيرًا ما يعوزهم ثمن الكتب التي تعتبر كتب مراجع في التجارة والصناعة والشؤون العملية والمهنية كالطب والزراعة والهندسة وأعمال القانون وغير ذلك، وهي كتب أو نشرات تصدر على نحو دوري، أي هي بالمجلات أشبه. وهي بهذا تكون أكثر قدرة على تسجيل الجديد المتطور في هذه الشؤون.

ومن المكتبات الخاصة مكتبات المتاحف وهي تحوي مجلات ومطبوعات ومجموعات من الكتب في الموضوعات التي تتصل باختصاص المتحف سواء في ذلك الآثار أو التاريخ الطبيعي أو الفنون الجميلة أو معارض الصناعات والشؤون الزراعية. والاخصائيون والأساتذة وطلاب العلم والهواة كثيرًا ما يفيدون من مثل هذه المكتبات. وخدمات هذه المؤسسات لا سبيل إلى الشك في قيمتها خاصةً لمن أعاد منها فعلًا وعرف ما يتجه إليه التنظيم الحديث فيها من ستهيل.

وقد رأيت كيف أن إخصائيًا في شؤون الآثار استعان بمكتبة المتحف كيما يحقق ما إذا كانت التحفة التي عرضت عليه أثرية أو مقلدة حتى استطاع الاهتداء إلى ذلك حينما جاء ذكرها في دليل التحف التي بيعت في المزادات في القرن الثامن عشر.

ومـن المكتبـات الخاصـة كـذلك تلـك التـي تكـون ملحقـة بالمستشـفيات، وتكـون غالبًـا للمرضـى لا للأطبـاء حيـث أن هـؤلاء لهـم مكتبات أخرى أكثر عناية بشؤون الطب والعلوم والأبحاث الطبية، وهي غير المكتبات التي نلحقها هنا بالمستشفيات. والقراءة وسيلة من وسائل العلاج النفسي لمن يستطيعها، فهي من أنجح الوسائل التي ينمي بها المريض آلامه وأحزانه، إذ أنها تشغله عن التفكير في حالته. ويلاحظ في اختيـار الكتـب التـي تقـدم للمرضـى أن تكـون بعيـدة عـن الجـو الحـزين والمآسي المفجعـة، وإنمـا تكـون مفعمـة بالأمـل والإشـراق كيمـا يشـرف المـريض منهـا علـى العـالم متفـائلًا يسـتقبل بهـا الحيـاة كمـا يسـتقبل يومًـا مشرقًا وضيئًا.

وكان الدافع على إيجاد هذه الخدمات في الغرب التفكير في توفير وسائل نفسية وجو نفسي لا يجعل المريض منفردًا بعلته وآلامه مما قد يزيد من حدة المرض. ولذلك فما يكاد يقر الطبيب المعالج بأن حالة المريض تسمح له بالقراءة حتى تزوره أخصائية المكتبة وقد دفعت أمامها عربة رشيقة أنيقة يتضاد لونها الأبيض مع ألوان الكتب التي تحملها، وهي تفتن في تشجيعه على القراءة بعد أن تتحدث إليه وتعرف حالته النفسية والاجتماعية ومهنته ومشاغله.

ومعظم الكتب التي تقدم للمرضى خفيفة هينة يقصد بها تزجية دور النقاهة. ولكن ذلك لا يحول دون وجود مرضى من القراء الذين يحبون العمق والإفادة الجدية مما يقرأون. وأكثر من هذا فإن حالة المريض حالة

ضعف أو حالة سلبية، ومن ثم كانت نفسه قابلة للتأثير عليها ودفعها إلى أحد الإمكانيات الخيرة ومن ذلك القراءة التي ترفع النفس وتسمو بها وتدفعها إلى الخير والحق والجمال.

وتحتوي مكتبة المستشفى على مجموعة من تلك الكتب في حجرة خاصة معدة كأحسن ما يكون الأعداد في ترتيبها واثاثها ومقاعدها وضوئها الملائم للحالة الجسمية والنفسية للمرضى. وقد لا تفي الكتب الموجودة بحاجة المستشفى فتلجأ الاخصائية إلى المكتبة العامة في المدينة لاستعارة الكتب المطلوبة منها.

ولا أظنني أقول جديدًا إذا ما ذكرت أن هؤلاء الاخصائيين وهاتيك الاخصائيات لابد أن يكونوا قد درسوا ونالوا درجة جامعية في الموضوع الذي تعنى به المكتبة الخاصة التي يعملون بها سواء أكانت مكتبة مستشفى أم سجن أو مدرسة أو شركة صناعية الخ علاوة على دراسة فنون المكتبات. ففي المدرسة مثلًا نجد المدرسين الذين نالوا إجازات في التربية وشؤون التعليم وأساليبه يدرسون فنون المكتبات بعد ذلك، كيما يتخصصوا في شؤونها وإدارتها ما دامت المكتبة وحدة وظيفية في التعليم الحديث كما سيأتي القول.

وهكذا تؤدي المكتبات الخاصة وظائف هامة تبين الخاصة من الباحثين والطلاب والمخترعين وأرباب الصناعة والمال والعمال الفنيين ومن إليهم على تحقيق غايات يسعون إليها ويفيدون بها الوطن والإنسانية، ويصبحون مواطنين صالحين ناجحين في أعمالهم، فالمكتبة

معمل خاص بالنسبة للمؤسسات الخاصة، معمل لا يقل عن معامل الكيمياء والطبيعة وتجارب الصناعات والاختراعات. وها هنا تدلك المكتبة على أنها تفيد الناس وترشدهم إلى ما يطلبون فيتعلمون عنها حتى ولو كانوا الأساتذة الذين لا يدانيهم في علمهم أحد بل لا أبالغ إذا قلت أن هؤلاء ما كانوا أساتذة إلا بالمكتبة.

والآن ماذا نريد؟

إنني أقدم هذه الفصول لأنني أومن إيمانًا راسخًا بأننا إذا كنا نريد أن تنهض ببلادنا ونرقى بأساليب التعليم فيهان وأن نوجد فيها جيلًا مسؤولًا جديرًا بتحمل التبعات القومية والمسؤوليات الثقافية والعلمية والإنسانية فلا بد من أن نعني بالمكتبات وأن ننظمها، لأن المدرسة لا تكفي للتعليم، بل إن المدرسة نفسها لا تكون كذلك بغير خدمات مكتبية تؤدي إلى تحقيق الأغراض التعليمية على أساس سليم..

نريد أن ننشئ المكتبة كما أنشأنا المدرسة .. ونريد المكتبة بالمعنى الصحيح الذي يجب أن ينطبق على مدلولها الصحيح.

نريد أن نقيم مكتبات على أساس سليم، ونريد أن ننشئ المعاهد لتخريج اخصائيين من ذوي الثقافات الرفيعة في كل فن، ونريد أن ندخل دراسة المكتبات وأساليبها في كل دراسة ليتعلم الطالب وسائل البحث وإيجاد المراجع واستخدامها في أبحاثه ورسائله، ونريد أن تدرس فنون المكتبات ونظرياتها التربوية والاجتماعية في معاهد التربية ليعرف المعلمون كيف يبحثون وكيف يرشدون الطلاب إلى البحث، ونريد مثل

هذه الدراسة في معاهد الصحافة والخدمات والدراسات الاجتماعية وغيرها.

نريد مكتبة سليمة وأخصائيين مثقفين، لأن الذي يقدم الطعام يقدم معه الشهية، ولأن هذا الطعام ضروري كالخبز.. ضروري للطالب والباحث والاستاذ ورجل الشارع الرجل الذي ينام على الحرير.

نريد أساسًا اجتماعيًا يقوم على المشاركة الثقافية وإيجاد روابط فكرية وعاطفة مشتركة بين ابناء الوطن الواحد للتكون القومية السليمة وليتربى الفرد الاجتماعي.

نريد أن نوجد علماء ومخترعين وأن نكشف عن المواهب التي اضطر أصحابها إلى مغادرة المدرسة اضطرارًا لتأخذ مواهبهم سبيلها في الحياة.

نريد أن نمحو أمية الأميين في الريف. ومحو الأمية لا يكفي ما لم تكن هناك مكتبة حية تغري الفرد على تجديد معلوماته والإضافة إليها.

نريد أن نوجد وسائل ثقافية لتزجية وقت الفراغ الذي يضيع في الطرقات والمقاهي والظلام والخوف والتمرد.

نريد أن نمحو أمية المتعلمين الذين قطعوا الصلة بينهم وبين المعرفة والثقافة منذ غادروا مقاعد العلم ونالوا الاجازات التي هي بمثابة جواز مرور للوظيفة أو شارة حسنة يباهي بها اصحابها في المجتمعات.. كل هذه جهود ضائعة وطاقة مبددة وذهب يضيع ترابًا تذروه الرياح.

نريد المكتبات، لأننا نريد المعرفة والثقافة للجميع على حد سواء وبلا تفرقة بين طفل أو شاب أو كهل أو زوجة أو عروس أو جدة شيخة. نريد المعرفة لكل فرد حسب ثقافته وعقليته وحالته. وليس من الضروري أن تكون المعرفة بقراءة ايلئتين ولا سبيوزا، بل يكفي أن يطلب كل فرد ما يريد. وهو إن طلب التافه اليوم فسوف يطلب على الأيام ما هو حقيقي بأن يبقى ويسمو به.

لنشعل المشاعل من النار المقدسة التي كانت لبروميثيوس البطل القديم.

من المعبد إلى الشارع

"هيا لنخرج من هذا المكان العتيق المظلم لنرى الناس في ضوء الحياة"

المكتبة الحديثة مكتبة ديمقراطية تؤدي خدماتها إلى رجل الشارع والعالم، وتخدم الصبي والطفل والفتى والفتاة، كما تسعى إلى المدرسة والمستشفى والسجن ومراكز الخدمات الاجتماعية والمدارس. ومعنى هذا كله هو أن المكتبة لا تفرق في خدماتها بين طوائف المجتمع بل تسعى إلى هؤلاء جميعًا بشتى وسائل الدعاية والإعلان حتى يتضاعف روادها ويزداد عدد من يُفيدون من مناهلها.

تلك هي سياسة المكتبة العامة في البلاد الديمقراطية وهي تعمل على توفيرها لتحقيق مبدا إتاحة الفرص المتكافئة للمواطنين كيما تنمو ملكاتهم ويتموا دراساتهم حتى تتجلى مميزات كل عقلية وشخصية وتنال مكانتها الفردية والاجتماعية.

وإذا أردنا أن نستعرض أغراض المكتبة العامة وجدنا أنها تعمل على:

- **نشر الثقافة وذيوع العلم.**
- **تهذيب الذوق والملكات الجمالية.**
- **العمل على تزجية وقت الفراغ على خير وجه ممكن.**

- تنظيم دراسات حرة لمن يريدون إتمام تعليمهم الأدبي أو الصناعي أو المهني.
- إرشاد الجمهور إرشادًا صحيحًا عمّا يريد أن يعرفه في شتى نواحي الثقافة والقراءة، بل إنها لترشده إلى أي ناحية من نواحي العمل أو التجارة أو السفر او الاتصال بالخارج أو الأسعار وغيرها.

وللمكتبة وسائل متعددة في تحقيق هذه الأغراض وما ينطوي تحتها، فهي تستخدم الصور والتسجيلات الصوتية والأفلام وقصاصات الجرائد والمحاضرات والمناقشات والإعلانات والنشرات إلى جانب الكتب. وهي تسعى إلى الريف، في مكتبات سيارة إذا كان من المتعذر إقامة مكتبات لصغر القرى، كما أنها تجعل مبانيها سهلة جميلة بسيطة جذابة بمعارضها الزجاجية التي تكون عادة مرئية من الخارج لمن يسير، وتحاول أن تحتل ببنائها مركزًا رئيسيًا ليكون قبلة الأنظار. وتبدو ديمقراطية المكتبة الحديثة في نظامها الداخلي في مظاهر أساسية.

فهي تحطم الحاجز بين القارئ وبين الكتاب فنجد الكتب موضوعة على أرفف مفتوحة في متناول اليد وتكون مبوبة حسب تقسيم "ديوي" أو غيره وتقسيم ديوي يقسم المعرفة إلى عشرة أقسام بأرقام مئوية فما قبل المئة هو المؤلفات العامة والفهارس ودوائر المعارف والدوريات العامة والجمعيات والمتاحف والصحف والمكتبات و١٠٠ تشمل العلوم الفلسفية و٢٠٠ الديانات و٣٠ العلوم الاجتماعية و٤٠ العلوم اللغوية

و٥٠٠ العلوم البحتة و٦٠٠ الفنون العملية و٧٠٠ الفنون الجميلة ووسائل تزجية أوقات الفراغ و٨٠٠ الآداب و٩٠٠ التاريخ والجغرافيا.

ولكل من هذه الأقسام فروع رئيسية مثلًا ١١ نابعة لـ ١٠ وهي الفلسفة ولكنها تخص الميتافيزيقا وهي فرع من الفلسفة و١٥٠ داخلة في الفلسفة كذلك ولكنها تخص علم النفس الذي يعتبر فرعًا من الفلسفة أيضًا و١٥١ في الفلسفة كما أن الـ٥ تشير إلى علم النفس وهو فرع الفلسفة كذلك، ولكنه خاص بجزء معين منه لأنه خاص بالذكاء فإذا اردنا العبقرية من الناحية النفسية وجدناها ١٥٠,١ وإذا أردنا العبقرية وصلتها بالجنون والشذوذ وهي دراسة نفسية كذلك وجدناها ١٥١,٦٢ وهكذا نتبين أن ١٥١,٦٢ تشتمل على أرقام يعبر كل منها في خانته عن موضوع خاص حسب التقسيم المذكور.

والكتب ترتب في الأرفف على هذا الأساس العددي مع وجود لافتة خاصة بعناوين الموضوعات الرئيسية لإرشاد القارئ.

ويترتب على هذا التقسيم وضع الكتب التي في موضوعات واحدة في مكان واحد لا يختلف تقدمها أو تأخرها إلا على حسب اسم المؤلف، وكذلك توجد الموضوعات المتقاربة في التقسيم في أمكنة متقاربة على الأرفف وبهذا كله يستطيع القارئ الاهتداء إلى الكتب التي تدرس الموضوع الذي يريد بحثه في أقرب وقت بأبسط وسيلة كما تكون لديه فرصة للمقارنة للاختيار من بين الكتب التي تعالج ذلك الموضوع والتي يجدها متجاورة.

وإلى جانب هذا فإن المكتبة تسهل الاستعارة وتتساهل في عدد الكتب المعارة للأشخاص ما داموا يعيدونها في مواعيدها،وإلى جانب هذا وذاك فهي تتيح خدمات المراجع والاستعلام لإرشاد المواطنين في كل ما يعتريهم من مشاكل تحتاج إلى استعلام.

وهكذا يتضح لنا بادئ ذي بدء ما للمكتبة من سياسة حيال المواطنين بعدما تبين أولي الأمر في الغرب أهمية الثقافة والاطلاع في عصر المكافحة والتنافس بحيث أصبحت المدرسة لا تفي بالحاجات العلمية والمطالب الثقافية لأن المدرسة مهمتها تعليم النشء فحسب دون أن تتجاوز هذا الحد مما يترتب عليه أهمية وجود مؤسسة عامة تكفل حاجات هؤلاء النشء بعد تخرجهم كما تكفر غيرهم بحيث توفر لهم أسباب الإرشاد والاطلاع والاستفادة من وقت الفراغ، وتهذيب الذوق وصقل الملكات، وتيسر لهم أيضًا وسائل التكيف بالوسط الاجتماعي المتغير المتطور بحيث يعيش المواطنون في انسجام اجتماعي بعيدًا عن الخلخلة والاضطراب. ومن هنا كانت أهمية المكتبة باعتبارها مدرسة غير محدودة الأفق لأنها مدرسة الجميع. وبالتالي قل أنها مدرسة الحياة.

فكيف تطورت إذن المكتبات خلال التاريخ حتى وصلت إلى هذا الحد؟ وكيف أننا في بلادنا وبلاد الشرق وقفنا عند مرحلة متأخرة من مراحل هذا لتطور، بحيث لا زلنا نعتقد أن المكتبة هي خزانة الكتب؟ فلنقف على لمحات خاطفة وصور سريعة من هذا.

التطور التاريخي

إن معابد مصر الفرعونية القديمة تسجل في معابدها آثارًا لخزائن كتب كما أن معابد آشور وبابل تسجل آثارًا أقدم لهذه المؤسسات. وتوجد بقايا من الألواح التي كان يكتب عليها الآشوريون في المتحف البريطاني. ويقال إن واحدة من هذه المكتبات كانت مرتبة ومبوبة بحيث كان يجب الإشارة إلى رقم المخطوط حين يراد طلبه. أما المكتبات في مصر فتنسب أقدمها إلى رمسيس الأول ثم تأتي مكتبة الإسكندرية التي تنسب نشأتها إلى بطلميوس الأول، ويقال أنها كانت أعظم مكتبات التاريخ القديم وأنها حوت من أربعمائة ألف إلى سبعمائة الف مخطوط، وظلت كذلك حتى أتت عليها النيران في القرن الرابع قبل الميلاد، وأصبح من المعروف علميًا أن إحراقها لم يكن على يد العرب حين فتحوا مصر. وأسهل مرجع للرجوع إليه في هذا الأمر دائرة معارف (كومبتون) المصورة، ويقال إن مكتبة الإسكندرية كانت أكاديمية ومجمع علماء وأبحاث يتخذون حدائقها الوارفة الظلال ملتقى للتدارس والجدل.

وقد كان ليوليوس قيصر فكرة إذاعة المكتبات وتعميمها في روما، كيما يجعل "عبقرية العباقرة حقًا مشاعًا للشعب" حتى لقد احتضنت المدنية الإمبراطورية نيفًا وثمانية وعشرين مكتبة ما لبثت أن اختفت بانحلال الحضارة الرومانية.

وهنا نلاحظ في تاريخ المكتبات قديمًا أو حديثًا أنها كانت مؤسسات ملونة بألوان حضارتها إلى أبعد حد، بحيث كان يطيب دائمًا

لمن ينتصر على عدوه أن يحطم المكتبات التي خلفها من سبقه كما لو كان يحطم روح النظام الذي يبغضه ويحاربه.

وكانت المكتبات ملحقة بدور العبادة أو القصور أو المدارس. وهذه كلها أمكنة تتركز فيها روح الحضارة والنظام القائم. وكذلك كان الحال في المكتبات في العصور الوسطى الإسلامية والمسيحية، فقد كانت هناك مكتبات على النحو المذكور وكلها ذات طابع من الحضارة السائدة. وتبدو مكانتها في العواصم الإسلامية الكبرى حين كان يفد عليها طلاب العلم وشيوخه، وكان الخزنة يقومون بما يسهل حفظ المخطوطات وترتيبها وعرضها وإعارتها مما يجعلنا نقدر جهودهم.

ويذكر كل من صبح الأعشى (جزء أول طبعة دار الكتب ص ٤٦٦) كما يذكر توماس في كتاب (المكتبات الوسيطة في فصل المكتبات الإسلامية ص ٣٤٧) ما كان العواصم الإسلامية من مكتبات من أشهرها خزانة كتب العباسيين ببغداد التي يزعم بعضهم أنها حوت ثلاثة ملايين من المجلدات، وخزانة كتب بني أمية في الأندلس. كما يقال أن عدد مكتبات قرطبة كان لا يقل عن سبعين مكتبة وقد أتلفها جميعًا ملوك الطوائف. ومن الخزائن الهامة كذلك خزانة الفاطميين بالقاهرة، كما يطلعنا تاريخ المكتبات في القاهرة على آيات من تسامح الإسلام وهي ميزة من مميزات حضارته فقد كان بالعواصم الإسلامية مكتبات خاصة ببعض اليهود منها مكتبة يعقوب بن كليس وإفرايم الطبيب وكانتا من أغنى الخزائن في القاهرة.

وقد أحرقت هذه الخزائن أو أتلفت على يد الغزاة وهم عناصر أجنبية أو همجية في الغالب مثل ملوك الطوائف أو التتر. وهذا المسلك من عناصر معادية في الحضارة أو العقيدة يؤكد أن هذه المؤسسات كان يتمثل فيها النفوذ الروحي للحضارة الإسلامية وخاصةً أنها كانت مرتبطة بالدين والسلطة الدينية مباشرة.

وكذلك كانت المكتبات في الحضارة المسيحية في العصور الوسطى وقد بدأت على يد القديس بنديكتين الذي ألزم رعاياه بقراءة الكتب المقدسة وكتابة نصوصها مما ترتب عليه وجود مجمعة من المخطوطات في كل كنيسة ومعبد. وقد ظلت الكنائس مركزًا للمعرفة حتى انتقلت سلطتها إلى الجامعات التي هي أقدم في مكتباتها من المكتبات العامة أو مكتبات الدولة كما سنبين ذلك في فصل تال.

ويمكنك أن تطالع كتاب توماس الآنف الذكر، لنلاحظ تفاصيل المرحلة الجديدة من مراحل التطور إذ نجد أن المكتبة قد فرضت لنفسها مكانة مدنية إلى جوار مكانتها الدينية التي كانت مسيطرة كل السيطرة من قبل ويتمثل هذا في مكتبات الجامعات الأوروبية القديمة حتى إذا كان عصر النهضة وشاعت الطباعة استقل التفكير عن الدين أكثر مما سبق ورأينا الإقبال على المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والرومانية، ورأينا على وجه عام إقبالًا على الكتب والقراءة مما أدى إلى إنشاء مكتبات مدنية بحتة مثل المكتبة الأهلية بباريس ومكتبة المتحف البريطاني والمكتبة الملكية في كل من برلين وميونخ والمكتبة

الإمبراطورية في موسكو. وبالرغم من ذلك كله لا تجد المكتبات شعبية على أي نحو من الأنحاء، بل كانت تخدم الخاصة من العلماء والباحثين.

انبعث أول نداء بالمكتبة العامة على يد مارتن لوثر الذي اعتبرها ضرورية للتعليم. أما المكتبة في روحها الشعبية التي ترى آثارها اليوم فيمكن إرجاعها إلى العقلية الأمريكية والإنجليزية. فقد كان الزعيم الأمريكي بنجامين فرانكان أول من نادى بوجوب تمويل المكتبة الشعبية بمال الحكومة، وعلى هذا الأساس أقام مكتبة فيلادلفيا سنة ١٧٣٢ فلما نجحت الفكرة أخذت البلاد الأخرى تحذو حذو المدينة التي وعدت المجد والذكر. ففي نصف القرن التالي صارت المدن تتنافس في إيجاد مثل هذه المؤسسات في أمريكا وانجلترا. ونجد أن معظم الولايات الأمريكية أقرت إعفاءها من الضرائب ثم اتجهت اتجاهًا عجبًا، فقد أقرت فرض ضرائب خاصة تجبى من الأفراد ضمن الضرائب العامة للخدمات المكتبية، وأصبح للمكتبات شأن يذكر بعد أن نهض رب المكتبة الحديثة ميلفيل ديوي الأمريكي (صاحب التبويب المعروف باسمة) بإنشاء اتحاد المكتبات الأمريكي سنة ١٨٧٦ وظلت المكتبات تمضي قدما في أمريكا وغيرها حتى صار عدد المكتبات العامة بالألاف إلى جانب مكتبات الجامعات والمدارس والمؤسسات الأخرى.

واستعراض تاريخ المكتبات الشعبية يعطينا عنه فكرة كتاب مثل (اختيار الكتاب لويلار) سواء في انجلترا أو في أمريكا، ومنه نتبين أن كثيرًا من المؤرخين قد اتجهوا إلى القول بأن التطور الاجتماعي والنهضة

الصناعية وما ترتب عليه من تضخم الثروة وارتفاع مستوى المعيشة وقيام الجبهات العمالية في القرن التاسع عشر كان له أكبر الأثر في تنظيم العميل وتحديد ساعاته مما نتج عنه وقت فراغ لم يكن موجودًا فلم يكن لمثل هذا التطور الصناعي أثر في المطالبة بإيجاد مؤسسات تعني بعقلية للعمال وتهذيبهم وتزجيه وقت فراغهم على أفيد نحو ممكن. وقد ساعد على لك ما أصبح لرجل الشارع من سلطة وشخصية وحقوق سياسة، فإلى أي حد تصدق هذه النظرية؟

وما هي العوامل الاجتماعية المساعدة على هذا التطور؟

النهضة الاجتماعية

ولعله من المفيد لنا أن نقف على مثل هذه العوامل، لنعرف أن المكتبة ثمرة من ثمراتها والواقع أن تحديد العوامل الاجتماعية أمر من الصعوبة بمكان نظرًا لتداخلها بحيث يصعب فصل مؤثر بعينه عن بقية المؤثرات. ولذلك فإن التعصب للرأي السابق الذي يقول بأن التطور الصناعي أثر تأثيرًا مباشرًا على نشأة المكتبات الشعبية لا تؤيده وقائع التاريخ في نشأة المكتبات الشعبية في كل أمريكا وانجلترا إذ إن الظاهر من هذا التاريخ كما نادى بذلك "ويلار" الآنف الذكر أن أفرادًا ممتازين بالثقافة والمكانة وحب الخير هم أصحاب الأثر المباشر في إقامة هذه المؤسسات.

ففي إنجلترا لم تظهر رغبة اجتماعية فيما يتعلق بطلب هذا النوع من الخدمات قبل أن يشرع البرلمان الإنجليزي تشريعًا خاصًا بإنشائها.

وكذلك الحال في بعض ولايات أمريكا. وكان يقود الحركة أفذاذ الرجال في كل من البلدين.

بل لقد وجدت السلطات معارضة من الأهلين في أول الأمر حتى إذا كان جيل جديد أكثر تعليما أمكن اقناعه بفائدتها، ومازال أهل النباهة والذكر والجاه والمال يمدون العون المادي والأدبي لتحقيق هذه المشروعات الشعبية.

وقد قدمت المكتبة في أمريكا العون والمساعدة للأجانب الذين وفدوا إليها مهاجرين دون أن يعرفوا الإنجليزية ضمن ما أدت من خدمات. وكان من هؤلاء من ذكر لها هذا الصقيع حتى إذ أتاه العمل والجد بالغنى والمال رصد ما يقرب من خمسين مليونا من الدولارات لإنشاء المكتبات في أمريكا وإنجلترا بين عامي ١٨٨٠، ١٩٢٠ وكان من شروط هبته لن يتبرع بالبناء إذا ما وهب المجتمع الذي يريد المكتبة أرضا للبناء وأن ينفق عليها ما يعادل عشر ثمن البناء كل عام وذلك حتى يضمن وجود رغبة أكيدة ودوافع قوية للمحافظة على المكتبة والتقديم بها في سبيل التفوق باستمرار، ذلك الفرد العلم هو للدرية كارنيجي الذي كان له أكبر الفضل في تطور المكتبات الشعبية وانتشارها في أمريكا وكندا وإنجلترا.

وإذا كنا نصدد الحديث عن العوامل الاجتماعية فلنقل إن كارتيجي هو من خلق المجتمع والعوامل الاجتماعية التي جعلته يتجه هذا الاتجاه والغربة التي غرست فيه هذا الميل، نعم كان كارنيجي من خلق المجتمع

الذي عاش فيه. وإذا كان قد انفرد بهذه المكانة في عالم المكتبة فقد تميز غيره بالتبرعات لإنشاء المعاهد والجامعات والمستشفيات في أمريكا التي تربى فيها كارتيجي وغيره من المتبرعين، وهذه المنشآت الأهلية تعتبر في أكثر الأحيان خيرًا مما تنشئه الحكومة هناك. فالجامعات الأمريكية العظيمة هي جامعات أهلية لا حكومية وقس على هذا في سائر المنشآت.

ومن العوامل الاجتماعية المختلفة التي أحاطت بنجاح وانتشار هذه المؤسسات:

١- انتشار المدارس الإلزامية وتعميم محو الأمية.

٢- توطيد الحرية السياسية الذي يجعل المواطنين أكثر اهتماما بشئون بلادهم كما تجعلهم القوة المحركة في توجيه سياستها.

٣- حركات الإصلاح الاجتماعي، وتبدو هذه الحركات كأثر في تطور المكتبة الشعبية في إنجلترا أكثر منها في أمريكا بينما كان انشار الديمقراطية وكسب الحقوق السياسية في أمريكا هو الأثر الظاهر أكثر من حركات الإصلاح.

٤- وجود الأندية الثقافية وانتشارها مما نمى روح التفاهم والتبصر بالمناقشات والمحاضرات والعمل على تفتيح آفاق جديد للثقافة.

٥- الإنتاج الصناعي ووجود فائض من الثروات الضخمة للإصلاح الاجتماعي والثقافي.

٦- وقد ترتب على تنظيم العمل ووجود جبهات للعمال وغيرهم من الطوائف الكادحة وجود وقت فراغ طويل وخاصة بعد تحديد ساعات العمل.

٧- ارتفاع مستوى المعيشة حتى يستطيع الفرد قضاء حاجاته الضرورية على الأقل، لتبقى له طاقة وقدرة واطمئنان للاستفادة والتحصيل مستواه الثقافي والمهني أو لمجرد التسلية بالقراءة واستخدام المكتبة.

٨- الحاجة إلى وجود تعليم اجتماعي حر ينظم تعليم البالغين الذين تركوا معاهد العلم ولم ينموا دراساتهم وقد وجدت المكتبات أكبر عون من المنادين بهذا النوع من التعليم المسمي Adult Education كما يظهر ذلك في اتحاد تعليم العمال في انجلترا ومكتب العمال للتعليم في أمريكا، وهيأت تعليم البالغين في هذين البلدين وفي حركة التعليم الشعبي في الدانيمارك وغيرها. ومما تقوم به المكتبات في هذا السبيل تنظيم مجموعات من الكتب عن موضوعات صناعية أو مهنية معدة لمن يطلبها وهي مرتبة من البسيط إلى الأصعب. ويشترط فيمن يريد أن يواصل هذه القراءة أن يستمر مدة كافية ليتردد على المكتبة في أوقات معلومة من فراغه. وهذا النوع من التعليم يتوقف على رغبة الشخص نفسه فيواصله بنفسه ويشرف عليه مرشد للقراءة يحفظ لكل شخص من هؤلاء

سجلا عن حالته ومستواه الثقافي والمادي ويمده بالنصح كما تسهل المكتبة لهؤلاء طرق الاستعلام عن الأعمال والمدارس والشركات والمعاهد التي يُمكن أن تفيد كل في فئة أو عمله الذي يتعلمه كما تنظم المكتبة محاضرات ومجتمعات في موضوعات خاصة بهؤلاء البالغين الذين يريدون أن يتعلموا لتحسين مستوى معيشتهم وإرضاء نزعاتهم.

٩- وجود أندية النساء في المدن والقرى. وقد كان لها الأثر الملموس في إنشاء المكتبات الصغيرة في البلدان والقرى خاصة فقد كانت النساء ومازلن- وكلهن متعلمات- يشغلن وقت فراغهن في أعمال أنديتهن ويتنافسن في إنشاء المكتبات التي تغلب عليها الروح الشعبية والتي تهتم بالأطفال والصبيان وغيرهم وتنظم برامج شيقة لإغرائهم على ارتياد المكتبة. بل إن أندية النساء قد زحفت بروحها على المكتبات حتى أمكن أن تسمى المكتبة الشعبية في أمريكا بنادي القراءة. فالمكتبة التي من هذا النوع أشبه بمنتدى مجتمع صغير منسق بمبناه ومدخله ولوحاته وزهوره حتى لتحس بأنفاس المرأة في كل ناحية من نواحي المكتبة.

١٠- أثر التطور الاجتماعي في ضرورة تقسيم العمل مما جعل من الواجب أن يخدم هذه المؤسسات أفراد مختصون، ولذلك وجدت معاهد لتخريج أخصائي المكتبات بل والتخصص في

فروع منها كمكتبات الأطفال أو مكتبات الجامعة أو المكتبات الشعبية أو الإرشاد في القراء أو من يختص بموضوع فني مثل الفهرسة والتبويب والمراجع.. إلخ.

١١- والتخصص يستلزم الاقتباس والاستعانة بتطور العلوم الأخرى والاختراعات في الخدمات المكتبية مثل التصوير والميكروفيلم في تصوير المجلدات الضخمة لتشغل أقل حيز ممكن مثل الجرائد وتصوير صفحات من الكتب والمجلات ضرورية لبحث أو لموضوع وتستعين المكتبات أيضا بفن العمارة في البناء، وبفنون الصحافة والدعاية والطباعة أو علوم النفس والاجتماع وإدارة الأعمال.. إلخ.

١٢- التربية الاجتماعية السليمة التي تشجع كل من يجدد في الفن ويساهم ولو بجهد ضئيل واحترام للقارئ مما جعله يقبل على القراءة. وكل ما يُمكن أن يتضمنه التعاون والتقدير والاجتهاد والإخلاص في العمل من معان. ويتضمن هذا أيضا احترام المجتمع لما يؤديه أخصائي المكتبة من واجبات ثقافية واجتماعية يشترط لها مستوى تعميم الممتاز والخبرة بدقائق المهنة.

وبالرغم من كل هذه الأسباب، فإن في استطاعة الأفراد الممتازين أن يفيدوا وأن يتبرعوا بمالهم ونفوذهم وجهودهم. فهكذا تسير حركات الإصلاح لتعكس الحركات الجماعية في أفراد بالذات.

مدرسة الحياة

"إن خير تعليم هو لك الذي يستطيع الفرد أن يناله بنفسه.

ولهذا فإن المكتبة العامة القادرة يجب أن تهيئ له هذه الظروف ووسائلها".

جيمس رسل لويل

رأينا كيف أن المكتبة الشعبية تخدم الناس أجمعين، وتحاول بمظهرها أن تغريهم وتشوقهم للقراءة. وإثارة التشويق مبدأ تربوي وأهميته هنا إنه لا يقتصر على التلاميذ، وإنما يمتد إلى جميع الأفراد كبارًا وصغارًا وهم في أشد الحاجة إلى المعين وسط تيارات الحياة الاجتماعية، إذ إن المكتبة تقوم على اتصال الأفراد بأفكار الجماعة وتطورها وتفكيرها وثقافتها عن طريق الكتب والمطبوعات وغيرها، كما أنها تهدف إلى إن تكون لديها مجموعة منظمة من المواد المنشورة في الصحف اليومية إلى جانب ما لديها من دوائر المعارف والمراجع. ومعنى ذلك أنها ترى أن تهيئ من هذه المنشورات التي تتضاعف بسرعة عجيبة مادة مختارة مهضومة.

وعلى هذا النحو وعلى اعتبار أن هذا كله هو رأي المجتمع وسجل حياته وتطوره يُمكن نا أن نقول إن الجريدة اليومية ما هي إلا مكتبة اليوم الذي نعيش فيه. أما المكتبة فهي صحيفة كل وقت.

ورأينا كيف أن المكتبة ليست وسيلة للتعليم فحسب، وإنما هي منهج متميز في هذا التعليم مختلف الطبقات وخاصة أولئك البالغين الذين يعتمدون على المكتبة في إتمام تعليمهم المهني أو الفني. والطابع الخاص بمنهج التعليم في المكتبة هو الحرية. ومثل هذا التعليم هو خير ما يُمكن أن يفيد المرء في حياته ويبرز شخصيته. وفضلا عن ذلك تعتبر هذه المؤسسات خير مكان لمعرفة أفكار المجتمع ومشاكله وتطوره وتكييف الفرد. فهي في الواقع أبعد غورًا وأعمق أثرًا في الحياة الاجتماعية مما نظن، بحيث تعتبر المكتبات مؤسسات ضرورية كالمدارس والمستشفيات فهي ليست ترفًا بل هي روح التعليم العام وبؤرة الرقي الفكري والحضاري.

ولهذا السبب أمكن أن نقول مع "يسطوبك" في ص ٢٠ من كتاب (المكتبة الشعبية الأمريكية): إن تعريف المكتبة الشعبية "هو أنها المكتبة التي يملكها أو يديرها الشعب أو التي تخدمه بلا مقابل من المال"، ولذلك كان من الطبيعي أن تنفق عليها الدولة أو الهيئات المحلية من الضرائب التي تجبيها من الشعب ولما ذكره المؤلف السابق في كتابه (المكتبات والمجتمع ص ٣٩٨) من أن "أثر الكتب على المجتمع إنما هو أثر بالغ حقا إذ هو أعمق من صحبه الإنسان لصديقه الإنسان. فالمكتبة تبعث إيحاء في أعماق المرء وتمس روح كيانه وعقله وشعوره وإرادته. والكتب هي التي تخلق أو تعدل معايير الأخلاق وتبنى قيم الحياة والسلوك وتمسك بزمام مشاعرنا وتلون منظارنا الذي نشرف به على الحياة".

ومهما يكن الأمر، فإن واجب رعاية الدولة والأموال العامة للمكتبات الشعبية وما يماثلها يرجع إلى أنها:

١- ضرورية للشعب ضرورة المدرسة نفسها.

٢- إنها المؤثر التعليمي الفريد الذي يستطيع أن يمتد في الحياة ويجعل المواطنين جميعا قراء.

٣- إنها الوسيلة الناجحة لتزجية وقت الفراغ على خير نحو ممكن وجدير بالدولة أن تنفق على مؤسسة تؤدي هذا الدور الخطير في الحياة الاجتماعية من الأموال العامة.

٤- من الواجب أن تكون عامة لا خاصة، حتى لا تتحكم فيها الأهواء والنزعات الفردية.

وعلى ذلك تعتبر المكتبة منشأة اجتماعية عامة لاستكمال التعليم العام. والمدرسة عاجزة عن تأدية مهمتها لجمهرة الناس الذين هم بعيدون عنها. وإذا صح التحايل على تكليف المدرسة وظيفة المكتبة العامة كانت النتيجة فشلا ذريعا مترتبا عن عدم إقبال الكبار على مدرسة الصغار، وعدم فهم المدرسين لعقلية الكبار الذين يختلفون عن هؤلاء الصغار، كما أظهرت التجارب ذلك في بعض المناطق التي لا توجد بها مكتبات عامة في أمريكا.

وغني عن البيان في هذا الموضوع- ما سبق ذكره- من أن جو الحرية في المكتبة العامة جوهري أصيل فيها، وهو لا يتوفر في المدرسة التي تتخذ والنظام والتقييد منهجا حتى في أرقى البلاد التي تحاول تحرير

المدرسة، فبينما يجد المدرسة محدودة البرنامج نجد المكتبة أبعد هدفا،لأنها تخدم مختلف الطوائف ومتباين العقليات. فقد باتت تخدم كل مهنة وصناعة وتحاول تلبية حاجات مختلف الميول والطبائع عن عمال إلى صناع إلى علماء إلى شعراء إلى نساء إلى أطفال، فهي الجامعة العامة التي لا تعرف برنامجا محدودًا وإنما تعرف منهجا في التعليم آيته التحرر من البرنامج المرسوم، كما أنها تضع سياستها تبعا لحاجات البيئات والأوساط التي تعيش فيها، والتاريخ والثقافة ولون النشاط الذي يسيطر على حياة المواطنين بحيث تكون وسيلة ضرورية للتقدم الاجتماعي.

وعلى نحو آخر نقول إن المكتبة التي توفر هذا المنهج الفريد من التعليم الذي يسمونه تعليم البالغين ضمن ما توفر من المزايا الاجتماعية الجديرة بكل عناية ورعاية من الدولة.

وتعليم البالغين كما قلت آنفا يرمي إلى تنمية الملكات، وغالبا ما تكون للحدق المهني لرفع مستوى المعيشة بزيادة الأجر، وذلك عن طريق الكتب وبرامج القراءة والمطالعات والمحاضرات والمناقشات التي تكون الرغبة الشخصية في المتعلم وحدها هي الحافز دون أن يجدها المعلم بتعاليم وتوجيهات مفيدة. ومثل هذه الدراسة الحرة الاختيارية ضرورية حتى لقد أذاع اتحاد المكتبات البريطاني سنة ١٩١٧ في لائحته أن الغرض التعليمي للمكتبة يتلخص في "تعليم الشخاص لأنفسهم في جو يسوده التحرر وعدم التقييد".

ومعنى ذلك يتلخص في هذه المعاني التي أكدناها لأهميتها والتي لا تخرج عن أن هذا التعليم يعتمد على الفرد ورغبته وهدفه وقدرته.

ونجد في مصر كثيرًا من الكتاب والمفكرين ممن فطنوا إلى هذه الأمية بين البالغين بل وبين المتعلمين أنفسهم وارجعوا ذلك إلى فساد التعليم والتربية. وأود أن أشير إلى أن أمية المتعلمين المثقفين ومحاولة ترقية مستواهم عن طريق القراءة والاطلاع ليست هي ما يطلق عليه اصطلاح تعليم البالغين، لأن مثل هذا النوع من التعليم لا يقف عن مجرد شغل وقت الفراغ ورفع النفس عن الصغار بالقراءة ومصاحبة الكتاب، بل هو تنظيم من جانب المكتبة لأنواع من دراسات الموضوعات العلمية والفية وغيرها. ولإيجاد كتب منطقية التدرج من السهل إلى المعقد في هذه الموضوعات وتنظيم برامج بتنظيم في سلكها من يريد أن يواظب ويستمر كما يشارك في البرامج التعليمية الأخرى من محاضرات ومناقشات فيستفيد كل منهم من خبرة المكتبة في الاستعلام والاسترشاد عن كل ما من شأنه أن يرفع مستواه في مهنته أو فئة أو هوايته، وذلك كله تحت إشراف مشرف القراءة أو مرشدها، ومعنى ذلك أن تعليم البالغين غير مجرد رفع النفس وشغل وقت الفراغ بالقراءة ولو أن ذلك من الوظائف الهامة للمكتبة العامة ولكنها وظيفة أخرى غير تعليم البالغين، ونحن في أشد الحاجة إلى تحقيق هذه الأهداف وغيرها في مكتباتنا، فمما لا شك فيه أننا من أكثر البلاد احتضانا للمقاهي التي تضم بدورها ملايين من الناس في المدن والقرى يضيعون وقتهم سدى وتنطع منكر وعبث ينتهي بالشر والجهل. ومن الواجب أن نهدي هؤلاء

السبيل إلى المكتبات الحديثة إذا ما أنشأنا عددًا صالحا منها على أساس سليم وكانت هذه المكتبات وثيقة الصلات بالبيئة ومشاكلها.

وهكذا عنى الغرب بإنشاء المكتبات،سواء كانت هذه العناية من جانب الأفراد أو الهيئات العامة أو الحكومات. ولم تك هذه العناية عبثا ولا سخطا لأن المكتبات التي تعنيها ليست خزائن الكتب وإنما هي مراكز للنشاط الاجتماعي يقصدها الأفراد في كل وقت لتزجية الفراغ أو الاستعلام أو القراءة والاطلاع أو الإفادة من برامج تعليم البالغين أو غير ذلك -مما هو واضح فيما سبقت الإشارة إليه- وقد استعدت هذه المكتبات بتنظيمها وترتيبها وفهارسها وبنائها وبالعاملين عليها خير الاستعداد لتجتذب أكبر عدد من الناس يفيدون منها إفادة جدية وتقيس نجاحها بمدى ذيوع شأنها وكثرة أصدقائها.

وتتضمن هذه الوظائف كون المكتبة حافظة للتراث الاجتماعي والثقافي بما فيه من آداب وعلوم وفنون، ليكون ذخرًا للأجيال وسجلا للتاريخ في تطوره وللحياة في تغيرها. وهي في نفس الوقت تجعل هذا التراث مناخا لجميع أبناء المجتمع الحاضر. ومما يدخل في وظائف المكتبة، باعتبارها منشأة اجتماعية، أنها تعمل جاهدة على إشاعة عناصر ثقافية وفكرية وروحية موحدة وإيجاد التجانس بين أفراد المجتمع الواحد سواء في عملها العادي أو في برامج المحاضرات والمعارض والمناقشات وبكونها منتدى للجماعات الثقافية والاجتماعية والدعوة إلى الأفكار السليمة ومناقشتها تحت إشراف أخصائيين سواء أكانت هذه

الأفكار سياسية أم فنية أم اقتصادية أم أدبية أم لمجرد المعرفة والاطلاع، وعملها على إيجاد التجانس بين أبناء المجتمع الواحد لا يقتصر عند هذا، بل بعملها العادي واختيارها كتبا معنية واتجاهها اتجاها اجتماعيا معتدلا في سياستها. إلى جانب عملها على نشر المعلومات الصحيحة بالإجابة عن كل استعلام في أقسام المراجع، وهي أقسام موجودة في كل مكتبة يصح أن تسمى مكتبة حديثة مهما صغر حجمها وقل شأنها.. كما إنه من المعلوم أنها تهيئ للأطفالي والصبيان مكانا في مجالها، كما تهيئ كل وسائل العون لإرشاد الباحث والعالم وإذاعة المعرفة.

لهذا كله اعتبرت مؤسسات اجتماعية أصيلة لها ضرورتها وأهميتها بحيث لا يستغنى عنها المجتمع المتحضر بأي حال من الأحوال. ولما كانت وظائفها حقا تاما متضمنة في برامج التعليم العام والإصلاح الاجتماعي فقد احتضنتها الحكومات في الغرب وبذلت لها المال والعون واعتبرت حق المواطن في الخدمات المكتبية لا يقل عن حقه في التعلم بالمدرسة.

أليست المكتبة هي إذن جامعة الشعب؟

أليست هي مدرسة حرة أو مدرسة الحياة؟

من المدينة إلى صميم الريف

"بعد المدرسة وإنشاء المعبد لله فليس ثمة ما هو أكثر خيرًا لبلادنا من المكتبة".

تيودور روزفلت

يحسن أن نلم بأنواع المكتبات التي تمولها الأموال العامة حتى تستطيع على صوتها أن نحدد ما يحب على مكتباتنا المماثلة القيام به سواء أكانت هذه المكتبات المراكز المكتبية الكبرى أم المكتبات الصغيرة في صميم الريف وهما غير المكتبة الشعبية في المدينة أو البلدة وهي التي تحدثنا عنها حتى الآن.

وأمثال المكتبات الكبرى هي مكتبة الدولة ومكتبات الولايات، وهي المكتبات الرئيسية إلى تحفظ التراث القومي أو الإقليمي وتكون بمثانة مراكز عامة للباحثين فتعني بهم على نطاق واسع بحيث تلي كل ما من شأنه أن يسهل البحث من مراجع وكتب في أنحاء البلاد، والتي من شأنها أن تكون كذلك مرشدًا ومعينا لا للباحثين فحسب بل لسائر المكتبات الشعبية والخاصة، فلسنا هنا بصدد مكتبات صغيرة شعبية على النحو الذي سبق ذكره في مكتبات البلاد والمدن وإنما نحن إزاء مكتبات أضخم وأوسع نطاقا بحيث يجعلها ذلك في مستوى قومي في البلاد التي توجد فيها، فلا تتقيد بالبلد الذي توجد فيه وإنما تمتد إلى

إقليمها أو قطرها حسب التقسيم السياسي لأن الحكومة الحاكمة هي التي تسيطر عليها وترسم سياستها الثقافية وخدماتها العلمية وهي التي تمدها بالمال وتختار موظفيها حسب اللوائح المتبعة،وتبعا للأهداف المرسومة وتحقيقا للخير الذي تنشده الدولة أو الحكومة من الخدمات المكتبية والذي يعود على الوطن وينهض بالبحث والتقدم العلمي في بلادها وفي البلاد الأخرى في كثير من الحيان.

ومن مكتبات الدولة مكتبة الكونجرس بمدينة واشنطن عاصمة الولايات المتحدة ومكتبة المتحف البريطاني بلندن ومكتبة الدولة بباريس ومختلف مكتبات الدولة في عواصم العالم المتحضر.

ونجد في كل من مكتبة الكونجرس والمتحف البريطاني مثلا مكتبا لتسجيل حقوق التأليف ملحقا بها ووظيفة تسجيل حقوق التأليف والنشر بشرط أن تودع نسخة أو نسختين من كل كتاب. وبذلك تحفظ الدولة لنفسها سجلا كاملا بكل ما أخرج من الكتب ويتم للمؤلف والناشر على هذا النحو تسجيل حقوقهما. وقد قدمنا تقريرًا إلى دار الكتب المصرية في مارس سنة ١٩٤٨ كان من ضمن ما احتواه، لرفع مستوى خدماتها، أن تعمل الدار على استصدار قانون يبيح لها الحصول على نسخة من كل كتاب يصدر في مصر على نحو ما تحصل عليه المكتبات الأخرى في الخارج وذلك لتكون مركزًا لمراجع البحث وسجلا لما ينشر ويطبع ويصدر في أنحاء البلاد، كما تمهد بذلك لتسجيل حقوق التأليف والنشر.

ويُمكن عن طريق مثل هذه الخدمات تنظيم تبادل المطبوعات مع الدول الأجنبية ومكتباتها ومعاهدها ومدها بالفهارس التي تحتاجها مما ينشر أو يطبع في وطنها.

وفي بريطانيا تجد المشروع القومي لتنظيم استعارة الكتب في أنحاء بريطانيا ومركزه مكتبة المتحف البريطاني. وهو مشروع يتيح لأي قارئ في أية جهة أن يطلب الكتاب الذي يريد استعارته من مكتبة الولاية أو المقاطعة عن طريق مكتبة البلدة أو المدينة أو الهيئة إذا لم يوجد بها، فإذا لم يوجد بها هي الأخرى طلبته من المكتبة الرئيسية بلندن.

ويترتب على هذا النظام جعل الثروة الضخمة للمكتبات الرئيسية في خدمة الباحث والمطلع في أية جهة في بريطانيا ولو كانت بلدة نائية أو قرية خاملة.

وغني عن البيان أن فهارس محتويات مثل هذه المكتبات الرئيسية بالغة الفائدة في الإرشاد إلى معرفة ما تحتويه كل مكتبة حتى يكون الطلب منها على أساس صحيح.

ومن الفهارس الكاملة الحديثة لمكتبات الدولة فهرست مكتبة الكونجرس وفهرست المكتبة الأهلية بباريس. وأما فهرست المتحف البريطاني فلم تنته طبعته الحديثة الشاملة بعد.

وإذا لزم الباحث الاهتداء إلى مراجع تبحث موضوعا معينا فلا شك أن هذه المكتبات الرئيسية تستطيع إفادته، فتعد القوائم اللازمة لكل بحث.

ومثـل هـذه الخـدمات موجـودة بمكتبـة الكـونجرس الأمريكيـة التـي تتقاضى عنها نفقات زهيدة لاعتبارها إياها خدمات خاصة تستلزم جهدًا أكبر وعملا أشق من عمل المكتبة الشعبية، كما أن مثل هذه المكتبات بمـا لـديها مـن ثـروة علميـة مـن المعـارف، تسـتطيع أن ترسـل صـفحات مصـورة مـن مقـالات الصـحف أو المجـلات أو الكتـب لمـن يطلـب هـذه الصور، وتتقاضى المكتبة على ذلك نفقات زهيدة أيضا. وهذه الخدمات موجودة في مكتبة الكونجرس كذلك.

وبعـض مكتبـات الدولـة وخاصـة الكـونجرس، تطبـع بطاقـات لكـل كتاب جديد، وهذه البطاقات تشتمل على كافة البيانات المطلوبة عن كل كتاب تظهر منها المحتويات التي يتضمنها علاوة على المعلومات العادية مثـل اسـم الكتـاب واسـم مؤلفـه وناشـره ومكـان النشـر وعـدد الصـفحات واللوحات وطول الكتاب ورقم التبويب إن كان عدديا واسم الموضوع إن كان يتتبع نظاما خاصا من الأنظمة المعروفة لرؤوس الموضوعات.. الخ.

ويُمكن لأية مكتبة أن تطلب هذه البطاقات لتستعير بها في إعداد فهارسها على أتم وجه وأحدثه تستطيع المكتبة الصغيرة أن تستعين بخبرة مكتبـة الكـونجرس فـي فهرسـة هـذه الكتـب وتبويبهـا، كمـا تسـتطيع أن تضيف إلى هذه البطاقات ما يلائمها من أرقام التبويب الذي تستخدمه.

وبهذا توفر المكتبة الصغيرة على نفسها جهودا وتسهل للباحث في فهارسـها مهمتـه بإيجـاد بطاقـات مطبوعـة مشـتعلة علـى كافـة المعلومـات وتعتبر هذه العمليات ذات تكاليف؛ لأنها تحتاج إلى أخصائي يبذل فيها

الجهد حتى تؤدي على الوجه الأكمل.

وقد اقترحت على دار الكتب إيجاد مثل هذا النظام وتعميمه لإيجاد فهارس مستوفاة الشروط وسهلة الاستخدام في يد القارئ في أية مكتبة إقليمية صغيرة. وذلك الاقتراح تضمنه التقرير الذي سبقت إليه.

وتوفر مكتبة الكونجرس خدمات خاصة للعميان وتسجيلات صوتية للأعمال الأدبية الكبرى وغير هذه الخدمات.

وهناك مكتبات الولايات أو المقاطعات أو الأقاليم وتعتبر مكتبات مركزية بالنسبة لمكتبات الولاية أو الإقليم وتعتبر كذلك بمثابة مكتبة الدولة من مكتبات الولاية وتقوم بالخدمات المركزية، ولكن هذه المكتبات- نظرا لكونها تابعة للهيئات الإقليمية وتستمد أموالها من الضرائب الإقليمية- تتجاوز الحدود السابقة المناطة بمكتبات الدولة في أنها تشرف على تنظيم مكتبات الإقليم وتنظمها ومن ذلك أنها تؤدي خدمات مباشرة في إقليمها.

فهي تشجع بالمال والخبرة على تحسين حالة مكتبات الإقليم والعمل على إنشاء مكتبات جديدة وذلك عن طريق حفز الأهالي وترغيبهم في الاستعداد بالمال والجهود لإنشائها. وهي تقترح القوانين والتشريعات التي تسترشد بها الحكومات الإقليمية في سياستها إزاء المكتبات الصغيرة. وتنظم توزيع الإعانات على مكتبات الإقليم.

كما تنظم معاهد ودراسات لتخريج من يعملون في المكتبات بحيث يكونون في مستوى لائق من الثقافة والمران.

وتعمل على تنظيم علاقات المكتبات بالمدارس ومكتباتها والأندية ومختلف المؤسسات.

هذا كله علاوة على إمداد المكتبات الصغيرة بقوائم عن الكتب المختارة في كل موسم وتنظيم العلاقات بين المكتبات المختلفة بحيث يسهل تبادل الاستعارة فيما بين هذه المكتبات بعضها ببعض وفيما بينها وبين مكتبة الإقليم.

ومن واجبات مثل هذه المكتبات الرئيسية في الأقاليم تشجيع القراءة والمكتبات الجوالة أو السيارة في الريف.

والملاحظ على مثل هذه المكتبات الإقليمية في الغرب أنها تحتفظ بالمراجع التي تعتبر سجلا لقوانين الولاية وتاريخها وتقاليدها بحيث تفوق مكتبة الدولة في هذه الموضوعات بالذات، ولذا كان نظام تبادل الاستعارة القومي من الأهمية بمكان حتى يستطيع الباحث استعارة أي كتاب في أية جهة كانت.

ومن الواجبات الهامة كذلك الاحتفاظ بفهرست مفصل عن ثروة كل مكتبة في الإقليم ترسل منه نسخًا إلى كل مكتبة فيه لتسهيل معرفة هذه الثروة.

وتعتبر مثل هذه المكتبات مراكز للخدمات المكتبية والاشراف عليها بحيث يوجد في إدارة التعليم والمدارس بكل ولاية قسم خاص للإشراف على مثل هذه الخدمات وكثيرًا ما يكون مقره مكتبة الولاية نفسها.

أما مكتبة البلدة أو المدينة الخاصة في تلك التي أنشأتها بنفسها والتي يتمثل فيها ما سبق شرحه في فصل سابق وبدء هذا الفصل من نظامها وروحها بقيامها بالنشاط المباشر لخدمة الجماعة تحت إشراف المكتبات المركزية وفروعها.

وبقيت كلمة يجب أن تقال عن المكتبات التي ينفق عليها من الأموال العامة في مصر على أساس إنه من الممكن توحيد وظائف مكتبات الدولة والمكتبات الإقليمية.

وتعتبر دار الكتب المركز المكتبي الرئيسي الذي هو بمثابة مكتبة الدولة، والواجب أن تعطي السلطة التي تمكنها من أن ترتفع إلى مستوى مكتبات الدولة في الغرب، وأن تعطى الفرص لرسم سياستها وتنفيذها في ضوء ما تجده لدي مكتبات الدولة في الغرب. وبدون تفاصيل اقتراحات تريد أن تتمكن هذه الهيئة من القيام بما تستطيعه مكتبات الغرب من خدمة وطنها على خير وجه وعلى النحو الذي أجملته في إيجاز.

فمثلا نريد أن تنظم قسما منها للإشراف على خدمات المكتبات الإقليمية وتنظيمها ورفع مستواها، وتكون واجبات مثل هذا القسم الدعوة للتعريف بقيمة المكتبات وتشجيع الأهلين على انشائها بمالهم، ومما لا شك فيه أننا ننشد إيجاد قسم آخر لتنظيم علاقة المكتبات بالمدارس والجامعات سواء أكان ذلك في الدار بنفسها أم في فروعها التي نرجو أن تطرد في نموها وزيادة عددها في القريب العاجل على أساس سليم. وما قلته بصدد المعاهد العلمية أقول عن خدمات الأطفال

وغيرها مما ذكر في هذه الفصول.

وتنظيم العلاقات في التبادل أو في عمل فهارس لمحتويات المكتبة نفسها والمكتبات المختلفة في الجامعات والمصالح الفنية والشركات والجمعيات العلمية وغيرها من الأمور التي لا يحتاج ذكرها إلى بيان وقد أخذت تتجه إلى هذه الغايات بالفعل.

هذا من ناحية المكتبات في المدن والأقاليم إلى جانب مكتبات المدن والبلدات، أما القرى الصغيرة فأظن أن مشروعات وزارة الشؤون الاجتماعية إل تقوم بتحقيقها مصلحة الفلاح والتعاون لإيجاد مراكز اجتماعية في أنحاء القرى كفيلة تحقيق الخدمات المكتبية في صميم الريف سواء أكان ذلك في غرفة للمكتبة ملحقة بالمركز الاجتماعي نفسه أم بتوفير المكتبات السيارة التي تطوف في قلب الريف النائي عن العمران والحضارة لتؤدي رسالتها.

والمكتبة التي تلحق بالمراكز الاجتماعية بسيطة تتلاءم مع عقلية البيئة وحالتها وخصائصها الاجتماعية والاقتصادية، فهي مثلا تحتوي على عدد من الصحف التي قد يطالعها لهم المشرف على المكتبة في أوقات معينة ليعول عليهم المشاكل التي تمسهم وعدد من المجلات المصورة والكتب المصورة كذلك والأفلام السينمائية عن الموضوعات الحيوية التي تفتح أمامهم مجال التفكير في تحسين مستواهم أو حالتهم الصحية، وتعطيهم حلولا عملية لزراعة محصول مربح أو تصور لهم ألوانا من الصناعات الريفية.. إلخ.

والمكتبة في مثل هذه المناطق تحتاج إلى خبرة خاصة بكيفية التعامل والتفاهم مع الريفيين وفهم بيئتهم وميولهم ونزعاتهم الاجتماعية، كما تحتاج إلى خبرة بفنون تعليم الأميين وتعليم البالغين إلى جانب فهم علم المكتبة ووسائل حفز أهل الريف وتشويقهم للاستطلاع والتعلم والقراءة بمختلف الطرق، وتشكيل جماعات منهم للمساهمة في ألوان النشاط الأخرى على نحو ما ذكر في سياسة المكتبة وتعليم البالغين.

ومما يتصل بهذا الموضوع المكتبات السيارة أو الجوالة، وهي السيارات التي تحمل الأفلام السينمائية والتسجيلات الصوتية ومجموعات الصور والمجلات والكتب الملائمة وتنتقل بها من مكان إلى آخر.

وقد تحققت هذه المشروعات في ولاية لم تكن تختلف حالة سكانها الاجتماعية والاقتصادية عن حالة سكان القرى في مصر، فقد كانت الأمية والمرض والفقر مستفحلة. ومع ذلك نظم برنامج في ولاية نيو مكسيكو في الجنوب الغربي للولايات المتحدة.. وكانت إحدى السيدات الثريات قد تبرعت بمبلغ ضخم للبدء في مشروعات الإصلاح التي تولتها جامعة نيو مكسيكو، وكانت وظيفة السيارات أن تدعو بواسطة الأفلام والصور لمشروعات الإصلاح ومحو الأمية وما إليها.

وكانت بداية رائعة انتهت بنهاية غاية في التوفيق والنجاح ففي شهور محيت الأمية! وليست هذه مبالغة بل هو ما حدث فعلا وما سجله التاريخ.

وقد سقت هذا كله مقدمة لسؤال كثيرًا ما يجول في الخاطر إذا ما ذكرت مشروعات عن المكتبات في الريف وهو؟ كيف يُمكن أن نقيم مكتبات لا تبين؟

وعندي أن المكتبة السيارة لم تكن مكتبية بالمعنى الصحيح في ولاية "نيومكسيكو"، بل كانت تستخدم الوسائل السمعية والبصرية audio visual aids؛ أي التسجيلات الموسيقية والأفلام والصور وغيرها، وقد استطاعت أن تجمع العدد الغفير من الأميين الريفيين وفي هذه الأثناء وخلال هذه المشاهدة كانوا في حالة تفتح نفسي تسمح لهم بأن يتلقوا الإرشادات والنصائح المقيدة الداعية للإصلاح والتي توحي إليهم بالتعاون ضد الأمراض الاجتماعية التي تفتك بهم ومنها الأمية والجهل.

وهكذا نجد مشروعات المكتبة كانت الصوت السحري الذي كان يدعو للإصلاح في نيوكسيكو ويعد آذانا صاغية.

أما أهمية المكتبة في الريف فلا تقل أهمية عن محو الأمية نفسه، إذ أن في استطاعة المرء أن يتعلم كيف يقرأ ويكتب مرحلة من مراحل محو الأمية وليست هي كل شيء لأن الريفي سوف ينساها بل المشاهد الملحوظ أنه ينساها بالفعل، فلابد من مواصلة الاتصال بمركز للقراءة يغريه على أن يطلع على الدوام، وهذا لا يتحقق إلا بوجود المكتبة، التي يجب أن تكون متصلة بمراكز الخدمات الأخرى المتصلة بمصالح الريفي المباشرة مما يضطره إلى التردد على مركزها. ولذا وجب أن توجد

المكتبة الريفية إلى جانب سائر أقسام المراكز الاجتماعية من خدمات طبية إلى زراعية إلى إرشاد اجتماعي وتعاوني الخ. ويحب أن ننظم لمثل هذه المكتبات إدارة فنية رئيسية تكفل لها النجاح والثبات.

إن أهمية المكتبة في القرى الأمية تتلخص في أنها:

١- تساعد على تعليم الأميين كما تساعد على تذكيرهم الدائم بما تعلموه.

٢- تكون مركزا للدعاية للإصلاح الاجتماعي.

٣- إذا شعر الريفيون بأن المكتبة تستطيع أن ترشدهم في مشاكلهم الحيوية والاقتصادية فإنهم ولا شك يقبلون عليها ويرغبون في ارتيادهم فتكون مركزًا لنشاطهم الاجتماعي.

٤- ولهذا فلابد أن تكون متصلة بنشاط الإصلاح الاجتماعي والإرشاد الزراعي والتعاوني والصحي والتعليمي لتصبح مركزًا لعرض ألوان هذا النشاط المتباين.

٥- إحياء التراث الريفي التاريخي للجهة والتلبية إلى أهميته وإحياء التقاليد الصالحة وإظهار مميزات المجتمع المباشر والإقليم الذي تتبعه.

المكتبة ودعائم الغد

"القدرة على اعتماد المرء على نفسه تتمثل في القراءة

التي تهبها المدرسة للطالب وهي على يقين من أنها هبة باقية ما بقى فيه نفس يتردد"

كارتر اليكسندر

"تتبوأ المكتبة الحديثة في المدرسة مكان القيادة لتأدية خدمات وظيفية؛ لتحقيق فلسفة التعليم ففي الحق أنها أداة حيوية للطلبة والمعلمين. ولسنا في حاجة إلى التأكيد بأن المكتبة هي المركز الفعال لنشاط المدرسة"

إنجليش

إن مكتبات الدولة هي أضخم المكتبات وأغناها، ولكنها بالرغم من ذلك أحدث عهدًا من مكتبات الجامعات لأن الأخيرة كانت دينية النشأة فكانت مراكز المعرفة وأداتها. وهكذا نجد أن أقدم المكتبات هي تلك التي تنتسب إلى الجامعات القديمة. فأقدم مكتبة في ألمانيا هي مكتبة جامعة هيدلبرج التي أنشئت سنة ١٣٤٦ وفي انجلترا جامعة كمبردج التي أسست سنة ١٤٢٥ في حين يرجع تاريخ مكتبة المتحف البريطاني إلى القرن الثامن عشر. وفي السويد نجد أن أقدم مكتبة هي مكتبة جامعة "ايسالا" إذ أنشئت سنة ١٤٧٧ وكان الحكام والملوك وأصحاب الجاه والنفوذ يشملون هذه المكتبات بعطفهم فما تم أنشاؤها إلا على هذا

النحو.

وإذا كنا نريد أن نعرف، في لمحات، علاقة المكتبة بالتعليم وفلسفته الحديثة فيجب أن نذكر المدرسة وارتباط المكتبة بها. وتاريخ هذا الارتباط يرجع إلى بداية هذا القرن العشرين، أو قل إنه يرجع إلى العقد الأخير من القرن التاسع عشر على وجه الدقة وقد عنيت الحكومات وهيئات الاشراف على التعليم بتنظيمها كأداة فعالة لتحقيق فلسفة التعليم الحديث.

والتعليم الحديث غير التعليم القديم، الذي كانت غايته التحفظ والتقيد بمادة ومواضيع معينة إذا ما استوعبها الطالب نال إجازته وأصبح من المتعلمين.

وأما التعليم اليوم في بلاد الديموقراطية الغربية فيتجه إلى إعداد الفرد لتحقيق غاية اجتماعية، بحيث يستطيع أن يكون مواطنا منسجما مع الجماعة قادرا على أن يخدم نفسه ويخدم تلك الجماعة، وذلك لا يتأتى إلا بأن يكون هذا الفرد قويا جثمانيا وعقليا ونفسيا بحيث يستطيع أن يتحمل تبعات الحياة، وأن تكون له مهنة أو عمل يتفق وطبيعته وميوله واتجاهاته وينتهي به هذا لوضع إلى أن يصبح قادرًا على نفع نفسه ونفع المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يكون جديرًا من الناحية الأخلاقية والاجتماعية بتحمل تبعات الأسرة وإسعادها وأن يكون مواطنًا صالحًا.

وهكذا أخذ يتطور التعليم إلى مذهب التكامل بمعنى أن مواد الدراسة المتفرقة ما هي إلا محاولة لجمع المؤثرات المتبادلة بين قدرة

الإنسان الجسمية والاقتصادية والاجتماعية وبين العالم الخارجي والمجتمع الذي ينتمي إليه. والغاية من مثل هذا المذهب إيجاد منهج تربوي كفيل بإعداد فرد متكامل له باستقلاله وشخصيته وقدرته.

ويقول "تيد" في مقال نشر في "نشرة اتحاد مكتبات الجامعات الأمريكي" (الجزء الخامس والعشرين ص ٤٠٠) يتلخص الغرض من التعليم الجامعي في أنه عقلي فلسفي روحي معا، غايته إعداد الشخصية الفردية والاجتماعية وتهيئتها للمهنة والحياة الاجتماعية. فالجامعة تبين الوسيلة لتحقيق الذات عن طريق المساهمة في الحياة الاجتماعية ولتقريب الغايات الديمقراطية بالمران على الحياة وتركيز الإيمان بها. أو بمعنى آخر يقال إن هذا الغرض هو إشباع الميول ورفع التفكير وتنمية الحساسية وفي الشخص حتى تمتد إلى المجتمع ليندمج الإنسان على هذا النحو في حياة الناس وفي الطبيعة ذاتها، ومعنى ذلك هو أننا لا نستطيع إلا أن نساير طبائع الأشياء في تبادل المسؤوليات الإنسانية وأن نهيء الوسائل العقلية والمثل الخلقي كيما تصبح الحياة الاجتماعية أسرع خطى في اتجاهات صالحة، ولتصبح جميع المعاهد قادرة على المساهمة على نحو أكثر يقينا في الحياة الصالحة لكل فرد. وإذا كان لنا أن نختصر القول في جملة واحدة فإننا تؤكد أن الغرض من الجامعة هو مساعدة العقل والروح في عزم ورغبة لكي تنتج في حرية وخصوبة".

وهكذا اتجه التعليم الحديث في نظرياته وفي بعض التجارب التي أجريت عن هذه الفلسفة في بعض المدارس الملحقة بكليات المعلمين

مثل مدرسة "لنكلن هوراس مان" التابعة لكلية المعلمين بجامعة كولومبيا إلى عدم تحديد برنامج أو فرض مواضيع معينة لتدرس، وإنما تتكيف البرامج حسب تطور المجتمع وحسب المشاكل التي تواجهها فالبيئة المباشرة هي أساس توجيه التعليم، ومن ثم كان اتصال المدرسة بالمجتمع أوثق مما نعهده عندنا. فالمدرسة تدعو الآباء والأمهات والقائمين على الخدمات العامة في المجتمع لدراسة ما يواجهه من المشاكل وما يشغل بال الأفراد من مسائل العيش والحياة وعلى هذا الضوء تكون الخطوة الأولى في توجيه التعليم.

كما أن التعليم الحديث يحاول أن يجعل الطالب مسؤولا واعيا لمشاكل الحياة، وأن يتحمل هذه المسؤولية حرًا مختارًا في حدود وعيه للمشاكل الجارية والمثل العليا الاجتماعية. ولذلك يتجه التعليم إلى تحميل الطالب مسؤوليات في المدرسة تشابه تلك التي يواجها في الحياة في مجتمع ديموقراطي، وذلك بوسائل مختلفة منها مجلس الطلبة المنتخب بواسطتهم لحل الكثير مما تعرض له المدرسة من مشاكل، ويكون أعضاء هيئة التدريس أفرادًا في هذا المجلس تحت رئاسة الطالب المنتخب كما يكون تعويد الحرية والمسؤولية وغيرها من الفضائل الديموقراطية عن طرق أخرى في الحياة المدرسية.

إذن فنحن أمام حقائق ثلاث تلخص لنا سياسة التعليم الحديث وروحه وفلسفته.

أولا: ليس هناك برنامج مرسوم، وإنما هناك مسائل وأحوال مختلفة

وعليه فلا تتفق مع مثل هذه السياسة الكتب المقررة في كل مادة من مواد الدراسة وإنما هناك الصحف السيارة ومقالاتها الحية التي تعالج مشاكل اليوم، وهناك المقالات المختلفة في مختلف المجلات، والفصول المتنوعة في مختلف الكتب.

ثانيا: التكييف بالحياة الاجتماعية الموجودة ومشاكلها ومواجهة هذه المشاكل كما هي في الحياة متفرقة معقدة لا موحدة مبسطة كما هي في الكتاب الواحد المقرر.

ثالثا: تعويد المسؤولية وحمل تبعاتها في نفس الوقت الذي يشعر فيه الطالب بالحرية. فالطالب يجب أن يبحث بنفسه وأن يتعود هذا الاعتماد على النفس في الرجوع إلى مصادر البحث وأن يختار هو الموضوع الذي يبحثه وأن يسأل عن مصادره إذا أراد عونا ونشد مسرفة بمراجع أكثر مما يعرف، وأكثر من هذا أنه يتعود ارتياد المكتبة دائما، ويتعود استخدام كتب المراجع والفهارس، وهذه عادة من أهم ما يُمكن أن يكتسبه من المدرسة، فالعاقل كما يقول "ماك كولفين" أحد اعلام المكتبات في بريطانيا "ليس هو بالضرورة من يعلم وإنما العاقل حقا هو من يعرف أين يجد المعرفة".

وبناء عليه، فإن المكتبة المدرسية أو المكتبة في الكلية ليست هي المخزن القديم المعروف لمجموعة الكتب،وإنما هي مؤسسة وثيقة الصلة بروح التعليم الحديث الذي يتجه إلى مجابهة الحياة بمشاكلها دون التقيد بموضوعات ميتة، والذي يرمي إلى أن يتحمل المتعلم مسؤولياته

فيتعود الاعتماد على نفسه في البحث والدراسة واختيار ما يلائمه. وهكذا تستعد المكتبة استعدادا خاصا بحيث تكون مركزًا لهذه التربية الحية بنشاطها الحافل.

وهكذا نجد المكتبة في مركز النشاط المدرسي ببنائها وبابها الواسع المفتوح ومعارض الكتب المنسقة التي تتغير تبعا لتجديد النشاط المدرسي، ومجموعات الكتب التي ترسلها إلى الطلبة في معاملهم وأمكنة دراستهم وهي كذلك مكان المعارض والإعلان عن نشاط المدرسة كما أنها تستعد بمجموعات من كتب المراجع والفهارس عن المجلات والكتب والموضوعات علاوة على مجموعات الصور وفهارس قصاصات الجرائد والأطالس والأفلام والتسجيلات الصوتية والصور المعلقة علاوة إلى جانب الكتب والمجلات.

"ليست المكتبة اليوم هي خزانة الكتب المنعزلة التي كانت في الماضي حينما اعتبر القائم بها خازنا كل وظيفته توفير الهدوء في المكان الذي توجد فيه مجموعة الكتب بأي ثمن، وتقدر جهوده بعدد الكتب المستعارة، وإنما نتبوأ المكتبة الحديثة هي مكانة القيادة لتأدية خدمات وظيفية لتحقيق فلسفة للتعليم. ففي الحق أنها حيوية للطلبة والمعلمين، فأننا في حاجة إلى التأكيد بأن المكتبة هي المركز الفعال لنشاط المدرسة"[١].

"تعتبر الكتب وسيلة لتوسيع التجارب ووسائل لرقي التفكير أكثرها

---

(1) English: Principl'sPlilosophy, Phila Delta Kappa, p. 22.

هي مصادر للتحصيل. والمكتبة تعد وحدة وظيفية في المدرسة والمجتمع أكثرها هي مكان به مجموعة كتب فأدواتها التي تعتبر وسيلة للتعليم ليست هي الكتب والمجلات فحسب، بل هناك وسائل جديدة لهذا التعليم مثل النشرات والخرائط ونماذج الكرات الأرضية والصور والفانوس السحري والأفلام السينمائية والتسجيلات الصوتية.

وأخصائي المكتبة الذي كان يعتبر منظما لها ومكلفا أولا وبالذات بإدارتها من حيث المحافظة على ثروتها أصبح يعتبر عضوًا في هيئة التدريس مشرفا على ميول التلاميذ وسياسة المديرين، وأصبح معدًا بمران وخبرة تكفلان له المشاركة الفعالة في رسم سياسة التعليم وتنفيذها فيما يتعلق بالمدرسة والبيئة التي يعمل فيها"[1].

"وليس أخصائي المكتبة موظفًا إداريًا مُجردًا عن التفكير المستقل في علم المعهد الذي يعمل في مكتبته، ولكنه شخص درس ومارس هذا الفن وأصبحت له واجباته المتميزة في ميدان التعليم وأنيطت به مسؤوليات اجتماعية خطيرة"[2].

وقد فصلت واجبات مكتبة المدرسة في نشرة وزارة المعارف الأمريكية عن مكتبة المدرسة الثانوية وهذه الواجبات تتلخص فيما يلي:

١-إخصاب المواد المدروسة، بمعنى عدم الاقتصاد عليها وإنما إمداد الطالب بمراجع أخرى.

---

(1) Lyle: The Administion of College Library. P. 194.

(2) Wriston: College Librariaen, A. L. A. Bul. 29: 178.

٢-خير وسيلة لتزجية وقت فراغ الطالب.

٣-تمرين الطلبة والتلاميذ على استخدام الكتب والمطبوعات والبحث في الفهارس والمراجع.

٤-العناية في تسهيل برامج الإرشاد التعليمي.

٥-تكون المكتبة عادة مركزًا للنشاط المدرسي.

٦-تمرين الطلبة على التعاون والخدمة في أغراض نبيلة،لأنها تستخدم بعض الطلاب بأجر ويعمل فيها آخرون متطوعين وتتألف من بينهم جماعة للمكتبة تمارس نشاطها كسائر أنواع جمعيات النشاط المدرسي فتنظم محاضرات أو برامج لنقد الكتب.

ولا تختلف روح العمل والسياسة في المكتبات الجامعية عما هي عليه في المدرسة، إلا بأن الأولى تبحث في مواد أكثر تفصيلا وتعمقا وأنها ذلك أكثر اهتماما بخدمات المراجع والفهارس الخاصة في الموضوعات الخاصة التي تدرس في الجامعة، كما أن الكتب فيها أكثر إمتاعا، وهكذا نجد أن مستوى العقليات يختلف، ولكن روح الفلسفة التي تقوم عليها المكتبة واحدة من حيث هي أداة وظيفية في التعليم، كما تختلف الواجبات والأعمال في الجامعة تبعا لاختلاف التفكير والسن بينها وبين المدرسة حيث يكون الإرشاد في الأخيرة أكثر بينما تكون أبحاث المراجع في الجامعة أدق وأهم.

بقيت كلمة عن المكتبات بالنسبة للتعليم العملي والفني، ونترك

الكلام عنها لما ذكره اتحاد المكتبات الأمريكي في نشره مستقلة نشرت بعنوان "لماذا يحتاج المران المهني إلى الكتب؟ ".

"الكتب هي وسائل للصناعات. فنشرات المختصرات التي تلخص محتويات كل ما نشر في الموضوعات المختلفة هي مصدر المعرفة عن أحدث تطورات الصناعة والفنون العملية.

والكتب المعتمدة في موضوع معين تتحدد قيمتها في إيجاد معرفة أوسع في الموضوع وتصف الوسائل والآلات وتشرحوتعلل.

والنشرات فائدتها من الأهمية بمكان في معرفة آخر التطورات، كما أن مختصرات الصناعة تشرح الأدوات الخاصة وتركيبها وتوضيح ذلك بالصور والوصف والمواد التي تستخدم في الصناعة وأثمانها.

ومن يريد أن يمضي قدما في مرانه وكفاياته فيجب أن يتعلم كيف يستفيد من الكتب ليكون أكثر انتاجا واطلاعا.

والنشرات والمطبوعات تساعد من يطلب الالتحاق بعمل تبين الشروط والخبرة وواجبات العمل الشاغر وتقديم الطلبات ووسائلها، كما أنها تسجل اتساع مجال الأعمال وتطورات الصناعة. ومن ثم يجب إلا يستغنى عنها في المعامل والفصول لو حتى في المنازل".

فهل تقدر المكتبات في مصر قيمة النشرات والإعلانات والجرائد والمختصرات والمراجع وهي التي تعد تافهة في نظرها؟ ومع ذلك فهي من أهم وسائل المعرفة المهنية في نظر اتحاد المكتبات الأمريكي الذي يؤكد قيمتها في معرض حديثه عن الدفاع الوطني في نفس النشرة السابقة الذكر إذ جاء فيها "يجب أن تسعى الكتب والمكتبات والمدارس والمدرسون والمعامل للدفاع الوطني ونعني بالكتب النشرات والمجلات وقوائم التجارة ودليل البيوت التجارية وبيانات الصناعات إلى جانب الكتب الضخمة".

الصمت غير ممنوع

"يا فتية الأرض و يا صبية العالم اتحدوا!

لقد غمطنا الكبار حقنا وثاروا على سلوكنا وحريتنا، لقد سخروا من تحررنا من تقاليدهم إذ رأونا نخطو منطلقين في الأرض بأزيائنا الزاهية!

يا فتيان ويا صبيان..

إننا نبغي التحرر في الرأي وننشد عالما مستقلا بتفكيرنا بالرغم من الكبار الذين يدعون فهمنا وبالرغم من ادعاء بعضهم أنه يكتب مخاطبا عقولنا!"

افتتاحية محرر مجلة " نقد كتب الصبيان"

التي تصدر عن مكتبة ناتان شتراوس بنيويورك.

"إذا كنا نريد أن نهب الطفل هبة واحدة فن تتردد في أن نغرس فيه حب الكتب"

و. ف. بيجلو

"الرجاء مُراعاة الهدوء والسكينة".. هذه لافته تجدها في أكثر المكتبات، وهي موجهة إلى جميع الرواد دون تمييز بين الرجل والصبي والطفل.

وإذا تذكرنا أن الصبي والطفل لا يرغبان في الهدوء والسكينة عرفنا أن معنى اللافتة إما وضع السدود والقيود حيال طبيعة الصغار، وإما عدم فهم لطبيعة هذين المخلوقين الذين كنا جميعا مثلهما وكلا الأمرين بما

ينفر في المكتبة.

ومما لا شك فيه أن للطفل والصبي حقوقا قبل مجتمعهم لا تقل عن حقوق الكبار قبل هذا المجتمع. ومما لا شك فيه أيضا أن نفسيات الأطفال والصبيان والمراهقين والبالغين تختلف في الميول والرغبات والتفكير والسلوك وسائر ألوان الحياة النفسية التي تميز كل فريق عن غيره، ولهذا كان وجود مثل هذه اللافتة في المكتبات العامة أو في مكتبات المدرسة أمرًا لا يتفق وطبيعة الأحداث. فهو فرض من قبل هؤلاء على من دونهم ممن يختلفون عنهم نفسيا وفكريا بما لا يتفق وفهم هذه الحياة النفسية والفكرية فيترتب عليه العصيان فالنهر فالزجر. وهو ما لا يتفق وأصول الكرامة الاجتماعية التي تتضمنها التربية الحديثة أو ما ينتج عليه الكبت فالعقد النفسية فالحياة المعقدة الملتوية التي لا تؤدي إلى إيجاد تخلق اجتماعي سليم وهو ما ينافي أبسط قواعد التربية كذلك.

وقد وضحت لنا أهمية الخدمات المكتبية في حياة الأفراد والجماعات.

إذن فمن الظلم الصارخ ألا تهيأ مثل هذه الخدمات للأطفال والأحداث والصبية والمراهقين. وقد كان من شأن البلاد التي تقدر للفرد قيمته والتي يشرف الآباء والأمهات فيها على سياسة المكتبة في البيئة المباشرة كالبلدة الصغيرة أو الحي أو ما إلى ذلك أن تنبهت هذه الأمم إلى أهمية الخدمات المكتبية للأطفال وكانت أمريكا في مقدمتها إذ

بدأت في أواخر القرن التاسع عشر، وسارت في سياستها قدما حتى انتهت إلى أن تكون أرقى الأمم في الاستعداد لهذه الخدمات بما لها من ثروة وما لنسائها من نفوذ في ميدان المكتبات وبما استطاعة قانون تخصيص العمل وتقسيمه من إيجاد من يتفرغون لهذه المهام ويجيدونها.

ومن الشائع في الشرق أن من شاب على شيء شاب عليه، وأن التعليم في الصخر كالنقش على الحجر، ولذا كان تعويد التجاء الطفل والصبي إلى المكتبة في وقت الفراغ وتعوده افطلاع شيئا فشيئا حسب مداركه من أهم ما لهؤلاء الصغار في عنف المجتمع من حقوق، حتى ليقول "بيجل" "إذا كنا نريد أن تهب الطفل هبة واحدة فلن تتردد في أن نهبه حسب الكسب". وقد سبق أن ذكرت وظيفة المكتبة في التربية في حديثي عن مكتبات الجامعة والمدرسة، وهو يطبق إلى حد بعيد في خدمات الأطفال والصبيان والمراهقين في المكتبة العامة، إذ أن مكتبة المدرسة مهما كانت حرة، فهي مقيدة بقيود الدرس والتحصيل والالتزامات المدرسية. ولذا كان من الضروري أن تعطي هذه الطائفة من الصغار حقوقهم في المكتبة الشعبية أو مدرسة الحياة أو جامعة المواطنين.

لقد زرت كثيرًا من تلك المكتبات الصغيرة المترامية كالمصابيح في أنحاء الولايات المتحدة، فكنت إذا ما اجتزت الباب أرى نفسي في ردهة كبيرة هي المكتبة حيث أجد إلى يميني قسم الكبار وإلى يساري قسم الصغار أو العكس، وبين القسمين فراغ فيه معارض الكتب

الجديـدة. ولـيس المقصـود بالتقسـيم أن يكـون بحـواجز مـن البنـاء وتخصيص حجرات مغلفة وإنما التقسيم في المكتبة تقسيم وظيفي رغم وحدة البناء. وهكذا نجد القسم الخاص بالأطفال عبارة عن ركن أنيق بسيط فيه معارض زجاجية لكتب الأطفال القيمة ومجموعات من الكتب الخاصة بهم في أرففها الكثيرة بحيث تكون في متناول يد الطفل. وقد علقت على الحائط لوحات وصور أنيقة. ولا تعدم أن تجد معارض لرسوم الطفال أنفسهم وطاقة من الزهر الأنيق، تجد كل هذا وتجد ابتسامة ويدًا رقيقة ترشد الطفل وتستقبله بحيث يتلاءم هذا ويتسق مع كل ما في هذا الركن الذي يدعو كل شيء فيه الطفل ويسحره ويخلب لبه إذ يجد فيه عالمـه السـحري الـذي يتفـق مـع خيالاتـه العـذب. وكـأن هـذه الكتـب والقصص والرسوم التي تبدو كذلك أمامنا ليست شيئا آخر غير مصباح علاء الدين السحري أو كهف نوم سرير المسحور بما فيه من ملائكة ومروج وعرائس وجنيات، وكل ما تستطيع تهاويل الأحلام أن تطرز به الخيال في نظر الصغار.

وعلة فصل الصغار عن الكبار لأنهما غير منسجمين. فلكل من الفريقين نواحي اهتمامه الخاص تبعا للتفاوت البالغ بين كل من العقليتين. فالصغير بجد نفسه مقيدًا إلى جوار الكبير الذي يحصي عليه حركاته وسكناته. والكبير بجد ضيقا وغضاضة في أن يكون مصدر ثقافته وثقافة الطفل واحدًا. ولما كان يتسبب عن الجمع بينهم القيود النفسية والعوائق الذهنية مما لا يتحقق معها مبدأ تهيئة الجو المناسب لكل فريق بما فيه من انطلاق مع الطبع الذي تتوفر فيه كان من الضروري أن تستقل

خدمات الصغار وأن تكون لها خصائص معينة تتلاءم وعقلية الأحداث ..وهكذا نجد التخصص في مكتبات الأطفال فرعا من فروع التخصص في فن المكتبات.

ولنفس هذه الأسباب النفسية ميزوا بين الأطفال من السابعة إلى الثانية عشرة والصبيان والمراهقين وهم ما بين الثالثة عشرة والعشرين، فإن الصبيان والمراهقين لا يرغبون في الاختلاط مع من يسمون أطفالا إذ يشعرون بشيء من الخزي في أن ينتسبوا إلى زمرة الصغار، ولذا أفردت لهم أماكن خاصة غير أمكنة الأطفال وكتب أخرى غير كتب الصغار. وذلك كله لإزالة كل عائق نفسي يجول بين الأفراد من مختلف الأعمار وبين المكتبة.

فللأطفال أو الصبيان كتب خاصة لها خصائصها في الطباعة والورق والتجليد والرسوم التي تعتبر من أهم العوامل في توضيح موضوعات كتبهم. كما تختلف تبعا للسن والجنس. ويتميز كل شيء في هذه الكتب سواء في المادة أو الموضوع أو الشكل تبعا لعاملي السن الجنس. وقد لوحظ في القصص مثلا أن الذكور من الأطفال في سن معينة لا يستسيغون قصص العرائس التي تحبها الإناث وإنما يميلون إلى ألوان أخرى من قصص البطولة في حين أن الأناث تستسيغ جميع القصص وبعد هذه المرحلة يميل الذكور إلى قصص الرياضة والرحلات والأبطال، وهكذا يخرجون من دور الطفولة إلى الصبا متميزين في كل شيء عن تمايز النفسية مما يحتاج إلى عناية المشرفين ودراستهم.

وتؤلف المكتبة جماعات من الأطفال مختلفة في أنواع النشاط، فمنهم جماعة من المراهقين لنقد الكتب. ومنهم جماعة برامج الموسيقى، وقد شاهدت في مكتبة أطفال- ناتان شتراوس (وهي أحدى فروع مكتبة نيويورك العامة البالغة فروعها حوالي الستين) فريقا من الأطفال يساهمون في برنامج الموسيقى بأن يحضر كل منهم تسجيلا صوتيا ممتازًا من عنده ليستمع إليه مع رفاقه في المكتبة العامة، ومن ضمن هذا النشاط برامج القصص التي تلقيها أخصائية المكتبة أو برامج المحاضرات ويلقيها الأخصائيون في أحاديث الأطفال، فنحن حيال فن من الفنون الرائعة التي تحتاج إلى تخصيص في شؤون الأطفال المكتبية والثقافية والتربوية.

ولما كانت المكتبة العامة تفترض- بالرغم من تسهيل جميع وسائل الأغراء- أن من الصعب على الطفل أن يقصدها من تلقاء نفسه فإنها تزحف إليه في مدرسته فتلقى إخصائية مكتبة الأطفال حديثا فيها عن أي موضوع وتعير الطلبة مجموعة من الكتب التي اصطحبتها معها من المكتبة عن موضوع الحديث الذي ألفته ونطلب إليهم إعادتها إلى المكتبة. ولما كان من الضروري أن يعيدها الطفل كان من الضروري أيضا أن يلج باب المكتبة مرة على الأقل. وقد تدعو المكتبة بواسطة الصحف أو الراديو أو النشرات المطبوعة عن برامجها ومعارضها ومحاضراتها والأفلام التي تعرضها كي تغري الأطفال على ارتيادها.

وحدث حين كانت تعرض إحدى مشكلات الهند على الأمم

المتحدة أن انتهزت مديرة قسم خدمات الأطفال بمكتبة نيويورك العامة المناسبة ودعت مندوبة الهند في هيئة الأمم للتحدث إلى الأطفال. ولكن أخصائية المكتبة رأت أن الحديث وحدة قد لا يرضى الأطفال الذين يستويهم أثر أقرب إلى نفوسهم من الأحاديث فخطر لها فكرة إقامة معرض من رسوم الأطفال الهنود واتصلت بالمندوبة بهذا الصدد، وكانت الجهات الهندية المسؤولة في نيويورك لديها مجموعة من هذه الرسوم كدعاية، وسرعان ما أرسلت إلى المكتبة وأعلن عن المعرض وعن حديث مندوبة الهند في هيئة الأمم وكان موضوع الحديث "الأطفال في الهند".

واستمع إليه آلاف مؤلفة من الأطفال وذويهم، والتف الأطفال حول السيدة الجليلة يسألونها عن زيها وعن المرأة الهندية وأحوال الهند ويسألون عن الطفل الهندي بوجه خاص.

وفي الواقع أن تلك المحاضرة دعاية للهند لم تقصد إليها مكتبة نيويورك. ولكن هذا لا يهم مادام الأطفال قد أتوا يقصدون المكتبة ليألفوا نشاطها وخدماتها فيما بعد وما داموا قد استفادوا من الحديث، ولم يكن هذا فحسب، بل كان درسا من المكتبة للناس بالدور الذي تستطيع تلك المؤسسات أن تؤديه من أجل خدمة السلام الدولي وتوطيد دعائم المجتمع الانساني والعلاقات الإنسانية، وهو درس رائع لأن كل ما يتعلق بالأطفال إنما يمس شغاف القلوب في كل مكان.

ومهما يكن الأمر،فهذه الخدمات تحتاج إلى استعداد خاص من

جانب إخصائيات مكتبات الأطفال. وأقول إخصائيات، لأن أغلب القائمين بهذه الخدمات من النساء. بل قل إن ما يقرب من تسعين في المائة في المكتبات منهن. وفي مجال الخدمات المتعلقة بالأطفال ترتفع هذه النسبة. وقد أصبحت هذه الخدمات من المهن التي تحتاج إلى تخصص وتفرغ وحكمة وسياسة، لأن معنى التعامل مع الأطفال ليس إلا التعامل بين عقليتين مختلفتين تمامًا. فلابد أن تعي الإخصائية هذه الحقائق بدراستها وتجاربها في عملها كاستقبال الصغار والتعامل معهم، ومحاولة فهم ميولهم والموانع التي تحول بينهم وبين القراءة، إن وجدت، كما تبدو كذلك في مشكلة اختيار الكتب لهم. ونحن نؤكد أهمية التبصر بهذه الحقائق لأن أغلب الناس حتى من بلغ منهم أرقى درجات العلم ينسون الحياة النفسية التي كانوا يحيونها في طفولتهم وهي التي تخالف تماما عقليتهم حين اجتازوا مراحل الطفولة. وقد عجب "رسكن" لهذا الفهم من الكبار الذين لا يتذكرون ما كان لهم في ظل طفولتهم من ثراء الخيال وخصوبة الأحلام.

والواقع أن هناك عدم انسجام بين كل من العقليتين كما قلت. وقد سألت مكتبة– ناتان شتراوس– السابقة الذكر الصبيان الذين زاروها عن سبب حبهم أو بغضهم للمكتبة فقال البعض أنه لا يحبها لأنها لا تتضمن برامج للرقص، وشكا آخرون لأنهم لم تجدوا كتبا عن النسبية. أما أغلب الإجابات فكانت تنم عن إعجاب بالمكتبة لأنها مبتكرة جذابة ما دامت مستقلة نهائيا ومخصصة كلها لهم بحيث يحس كل أنه في بيته، كما أنه يستطيع أن يجد أي كتاب يطلب، وأقر جميع الصبيان أن ما في المكتبة

يجلب الارتياح إنه ليس بها كبار على الإطلاق.

وهيبة الصغار من الكبار يحب أن تتغلب عليها أخصائية المكتبة في خدمة الأطفال والصبيان وأن تحرص على صداقتهم وحدث في إحدى مكتبات الأطفال في كاليفونيا أن ذهب صبى في الحادية عشر إلى المكتبة لمشاهدة فيلم أعلنت عنه ورأى أنه قد صار وحيدًا بعد انتهاء الفيلم إذ تفرق أصدقاؤه في أنحاء المكان يقبلون فيما يعجبهم من الكتب وما كان هذا الصبي بقارئ ولا بمحب للقراءة إذ كانت كل ميوله منحصرة في كرة القدم. ولقيته على هذا الحال سيدة أخذت تجاذبه أطراف الحديث ففهمت إنه لا يقرأ ولا يحب القراءة وكان حديثها شيقا يفيضعطفا وارتاح لها الصبي وصار يتردد على المكتبة ليحدثها عن مشاكله في فترات الراحة. وكان يشكو لها تصرفات صديقته في المدرسة وأخذ يتردد عليها عدة مرات لعلها ثلاث أو لعلها أربع حتى كانت مناسبة شائقة اقترحت فيما عليه أن يقرأ كتابا نشر حديثا وورد لمكتبة عن كرة القدم التي يحبها ولم يستطع لهذا الاغراء دفعا، فقد أحس أن هذا أمر طبيعي، فأخذ الكتاب وأعجب به فقرأه وأراد أن يقرأ غيره عن ألوان الرياضة الأخرى ثم تدرجت ميوله إلى موضوعات أكثر جدية حتى صار قارئا ممتازًا.

وتصدر مكتبة– ناتان شتراوس أيضا– مجلة عن نقد الكتب هيئة تحريرها من الصبيان المحبين للقراءة، وهذه المجلة تمثل عالما مستقبلا متميزًا من التفكير والسلوك والرأي لطائفة من المواطنين الصغار، وفي

زياراتي للمكتبة السابقة الذكر أهدتني المكتبة عددًا من هذه المجلة يقول محررها الصبي في افتتاحيتها "اتحدوا يا فتية الأمم ووحدوا صفوفكم صبيان العالم! لقد غمطكم الكبار حقكم فسخطوا على عاداتكم وحريتكم وسخروا من تحرركم من تقاليد جيلكم العتيق إذ يرونكم تخطرون في الأرض مرحا منطلقين بزيكم الزاهي الذي لا يناسب ذوق الكبار السقيم.. يا فتيان.. إننا نريد أن نتحرر في آرائنا وأن نحيا في عالمنا الخاص رغم عالم الكبار الذين لا يفهمونكم وإن ادعوا ذلك. ولو ادعى بعض الكتاب من هؤلاء الكبار إنه يكتب لنا ويخاطب عقولنا".

وهكذا تفسح المكتبة الديمقراطية مجال الحرية واستكمال عناصر الشخصية المستقلة لكل فرد. وهكذا يتعلمون في المكتبة الشعبية كيف يكونون أحرارا. وإذا كانت المدرسة تطبع التلاميذ بطابعها المدرسي فإن المكتبة الشعبية تدعم هذا الأساس العام على أساس حق الحرية والاستقلال.

ولكنها ليست حرية إلى غير حد،وإنما هي حرية مفيدة بحيث لا يشعر الفرد بقيودها نعم هي حرية مقيدة بتعاليم المجتمع ومثله العليا التي تترسمها الشبيبة في المجتمع اليقظ.

ومعنى هذا كله هو أن التعليم العام في المدرسة يوجد المنهج ويوجد نظاما ما واحدًا وأساسا من الشعور الاجتماعي مشتركا بين أبناء المجتمع الواحد وبين المواطنين، تدعيما للشعور بهذه القومية الاجتماعية ومثلها الديمقراطية. وهكذا توجد هذه المشاركة قوية متينة

لصالح أبناء المجتمع والتعاطف الاجتماعي والمصالح المشتركة والإيمان بالمُثل العُليا الواحدة.

والمعنى الأخر لهذه السياسة هو محاولة إيجاد الفردية والشخصية ومميزاتها المنتجة المبدعة مما لا يتحقق إلا بالحرية. ولعل هذا هو مكان المكتبة العامة الشعبية الحرة حين تلتقي بالمدرسة المقيدة التي تطبع الأفراد بطابع عام ما دام هناك تعليمًا عامًا.

وفي الحق أنه من الخطأ أن ننسب العمومية وتدعيم القومية من ناحية والفردية والحرية والشخصية من ناحية أخرى لواحدة من المؤسسين دون الأخرى. بل الواقع أن المدرسة الحديثة والمكتبة الحديثة يتعاونان متضامنين في تحقيق القومية والفردية أي الروح الاجتماعية والشخصية وجمعهما هو خلاصة فلسفة الحياة الاجتماعية في القرن العشرين.

هناك حرية وفردية من ناحية، وهناك الأثر القوي للمكتبات في ايجاد التجانس بين عناصر غير متجانسة. ويقول المكتبي الاسكنديتافي "مانت" في كتابة "المكتبات الأمريكية من وجهة نظر أوروبية" "إنى أعزو هذا النشاط البالغ للمكتبات في الولايات المتحدة أولا وبالذات إلى الجهود الجبارة التي تبذل للإيجاد تجانس بين جماعات وأفراد غير متجانسين عن طريق الكتاب الذي هو دعامة الثقافة".

المعرفة الحكيم القديم إلى المواطن الحديث

"الرجل الحكيم ليس هو بالضرورة من يعرف، ولكنه هو الذي يعرف أين ما يحتاج إلى معرفته"

ماك كولفين

عرفت زميلًا كان لا يضيع وقته هباء وإنما كان دؤوبا على التحصيل، ولما لم يكن له اتجاها معين، فقد أكب على دائرة المعارف البريطانية يقرا أجزاءها الأربعة والعشرين وما يحتوى عليه كل جزء منها، يقرب من ألف صفحة على اقل تقدير.

ولا شك أن هذا جهد مشكور، ولكني ما أحسب أن دوائر المعارف وما يشبهها من الكتب الضخمة قصد بها أن تقرا بحذافيرها، وإنما وضعت لغرض آخر، ليس هو مجرد تحصيل العلم والمعرفة على هذا النحو، ومثل ما فهم ذلك الزميل إنما يدل على تفكير لا يتلاءم مع هذا العصر الذي نعيش فيه، وهو عصر تتفق روحه وهذا الجهد الضائع في شتى الموضوعات ومتباين ألوان المعرفة. فإذا كان ينشد العلم، فما هو ببالغ من هذا الجهد المبذول شيئا.

ومع أن الشباب اليوناني في التاريخ القديم كان يستوعب ما يشبه دائرة المعارف، ومع أن بعض أفذاذ الحكماء مثل أرسطو وابن سينا

وبيكون استطاعوا أن يلموا بشتات المعارف في عصورهم لما لهم من مواهب فذة، وكما كان العلم محدود الأفقي في تلك العصور، فأظن إننا لا يُمكن أن نجاريهم نظرا لفيض المعارف الزاخر الذي يخرج في مئات الكتب والنشرات والمجلات كل يوم.

إننا لا نستطيع أن نحصل المعرفة،كما اتفق، لمجرد احتمال حاجتنا إلى جزء يسير منها في حياتنا وخير من ذلك أن نوفر الجهد وان نلم بهذه الكتب العامة التي تستطيع أن ترشدنا إلى ما نريد حين نريد، لأننا بذلك نتعلم منهجا ضروريا نافعا لا غني عنه في عصرنا المعقد الفياض بالعلم وتطوراته وما يكشفه ويذيعه ويسجله عن الطبيعة والإنسان.

لم يعد العصر الحديث عصر الحكماء الذين يلمون بكل وإنما هو عصر المواطنين الذين يعلمون ويكدحون ويحتاجون في حياتهم إلى مرشد يرشدهم.

ماذا يعنى رجل الأعمال الذي سئل عن سر نجاحه بالرغم من عدم إتمام تعليمه الجامعي ؟ فأجاب بأن أعظم عون له هو أنه عرف أين يجد ما يريد حين يريد؟

وهكذا نعرف أن معرفتنا لطريقة الاستعلام ربما كانت خيرا من معرفة مواد نحفظها ونحشو بها أدمغتنا لننساها بعد ذلك.

ومن الواجب أن نتعلم السبيل إلى استخراج ما نحتاجه من فيض المعارف الزاخر وتطورات العلم والإنسان سواء أكان ذلك في المكتب

العامة أو في المدرسة.

فالمكتبة في المدرسة وخارجها لا تقصر خدماتها على إعارة الكتب وتيسير المطالعة وإنما تقوم بخدمات المراجع والاستعلام التي ليست شيئا آخر غير استخدام الكتب العامة التي يحتاجها المرء للاطلاع على جزء ضئيل مما فيها لا ليقرؤها كلها في وقت واحد مثل دوائر المعارف والمعاجم والقواميس والأطالس ودلائل المدن والتقاويم السنوية الإخبارية وفهارس المكتبات وفهارس المجلات.

وقد تكون هذه المراجع خاصة بموضوعات مثل دائرة معارف في الطبيعة أو قاموس في التاريخ الطبيعي أو فهرس للمقالات الأدبية التي نشرت في فترة معينة وهكذا.

دوائر المعارف

وإذا كان لنا أن نختار مثلا من هذه الكتب العامة، فإننا نختار دوائر المعارف لتشير إلى بعض ما يتعلق بها ككتب مراجع من الطراز الأول، ولأنها هي والقواميس أقدم نوع عرف في التاريخ من كتب المراجع.

وكلمة دائرة معارف، باللغات الأوروبية مأخوذة عن كلمتين في اللغة اليونانية القديمة معناهما "التعليم الكامل" مما يتفق مع ما كان لدائرة المعارف من قيمة في التعليم عند اليونان، كما أن كلمة قاموس كثيرا ما تستخدم بمعنى موسوعة أو دائرة معارف، مثل قواميس التراجم الشهيرة في أوروبا وأمريكا وقاموس "جروفز" في الموسيقي وقاموس "ثرروب" في الكيمياء التطبيقية الخ، وعلى هذا النحو نجد أن تعريف الموسوعة

بالانجليزية مماثل لتعريف القاموس، لأنها ليست غير "كتاب يعطي معلومات عن فروع المعرفة لمختلفة، أو عن موضوع بالذات، ومرتبة ترتيبا أبجديا، بل إن القواميس قبل أن نتطور هذا التطور الحديث الذي نراه،كانت سجلا للاقتباسات من مؤلفات هو ميروس وغيره من المؤلفين اليونان أو الرومان، كما كانت تحوى معلومات متباينة على نحو ما نشاهد في دوائر المعارف الحديثة، وعلى نحو ما نشاهد في المعاجم العربية.

وليست دوائر المعارف في موضوعاتها على الأقل بغربية عن المؤلف العربي، فقد عرفت المصنفات المتنوعة في مختلف العلوم، غير أن الفهرسة والتبويب والعناية بتقسيم المادة تحت عناوين متميزة وما إلى ذلك من وسائل التنظيم الفني لفهرسة الموضوعات لم تكن معروفة، بل ولا زالت أصولها الفنية مجهولة حتى اليوم، في الشرق.

ولعل أول من وضع أساس دائرة المعارف الحديثة في نظامها وتبويبها الذي نراه اليوم هو "افرايمتشامبرز" الذي اصطنع الترتيب الأبجدي على أساس نافع، فحل مشكلة من أهم المشاكل في منهج البحث في دوائر المعارف وغيرها، فما كادت تظهر موسوعة تشامبرز في جزئيها عام سنة ١٧٢٨ حتى ترجمت إلى كثير من اللغات الأوروبية، واتخذت مثلا يحتذي لموسوعات أخرى فتأثرت بها مثلا دائرة معارف "ديدورودالمبرت" المعروفة لقراء الأدب الفرنسي في تاريخ الحركات الفكرية لعصر "روسو" وعصر الثورة الفرنسية وبوجه عام، وقد كانت ترمى إلى التمهيد الفكري للثورة، كما كانت تنشد ارتقاء التعليم في عصرها.

ومن المعروف أن دوائر المعارف أو الموسوعات تحتوي معارف متنوعة في موضوعات متباينة، محاولة بذلك أن ترشد بقدر الإمكان في كل فن وبحث، وهي مرتبة ترتيبا أبجديا بعناوين الموضوعات التي يراد البحث عنها. وقد يبدو أن إيجاد العناوين على هذا النحو أمرا سهلا يسيرا.

ولأفرض إني أردت البحث عن معلومات عن "الغزالي" مثلا في دائرة معارف أوروبية عامة وليست خاصة بموضوع فلسفي، وقلبت الصفحات حتى مكان الترتيب الأبجدي لكلمة غزالي، ولم أجد ما أريد، فهل أجزم بناء على ذلك بأن الموسوعة خالية من مبحث عن الغزالي! وربما وجدت كلمة الغزالي في ترتيبها الأبجدي فأجد إشارة كالآتي: الغزالي، أنظر الفلسفة الإسلامية أو أنظر مادة إسلام.

وإذا كان هناك فهرس ملحق بالموسوعة نظرت فيه فربما كانت المعلومات الخاصة بالغزالي في موضوع آخر أكثر عمومية.

ونخلص من ذلك إلى أنه ليست كل كلمة تخطر ببالي من الضروري أن تورد في دائرة المعارف كما تصورتها، فقد تكون واردة تحت عنوان آخر، فيجب أن أبحث قبل أن اجزم بعدم تعرض الموسوعة للموضوع. وفي الوقت نفسه يجب أن أتصور أكثر من مرادف لموضوع البحث.

وعلى هذا النحو كان اصطناع العناوين المتعددة بقدر الإمكان، وجعل المقالات قصيرة من مميزات دوائر المعارف الأمريكية التي تضع عناوين متعددة، حتى لا تتضمن المقالات الكبيرة الكثير من الموضوعات

الصغيرة.

وتعتبر الموسوعة البريطانية من أهم المراجع في باب الموسوعات وقد طبعت للآن عشرات الطبعات، وكانت أولى طبعاتها عام سنة ١٧٦٨ في ثلاثة أجزاء، وظلت تنمو بنمو المعرفة وتطور البحث والاختراع، حتى أصبحت سنة ١٩٣٩ في أربعة وعشرين مجلدا. ولما كنت هذه الطبعة قد مضى عليها الآن سنوات كثيرة، صار من الضروري أن تعدل المعلومات باستمرار حسب تطور العلوم والفنون والاختراعات، ولذلك يلحق بها كتاب سنوي يسمى "الكتاب السنوي للموسوعة البريطانية" وهذه خطة متبعة في كثير من دوائر المعارف لتتمكن من تجديد معلوماتها باستمرار، إذ لا قيمة لكتاب من كتب المراجع دون أن يعنى بالجديد الحديث وبعض المراجع الأخرى تباع في ملفات، وكلما جد جديد كل فترة أرسل ليوضع في الملف بدل القديم، ويشير الناشر إلى ذلك بالتفصيل، ولما كان هذا صعب بالنسبة لموسوعة عامة عديدة الأجزاء ضخمة المجلدات، فإنه يكتفي بأن تجدد معلوماتها بطريقة الكتب السنوية.

ومن المهم الإلمام بكل هذا ليمكن استخدام كل ما في الموسوعة من معلومات، بل ومن الضروري معرفة مميزات كل موسوعة وكيفية تنظيمها ومدى عنايتها بكل نوع من أنواع المعرفة. وليس هذا فحسب، بل يجب معرفة الفرق بين الطبعات المختلفة للموسوعة الواحدة ومميزات كل منها فدائرة المعارف البريطانية تتميز طبعتها التاسعة، والحادية عشر أنها أكثر فائدة في البحوث التاريخية والموضوعات

الأدبية والفنون الجميلة والتراجم وما إلى ذلك، ولكنها طويلة المقالات إذا قورنت بالطبعة الأخيرة، التي تعتبر أهم وأكثر فائدة من ناحية البحوث العلمية وتطورات العلوم والفنون العملية. ومع هذا كله فإن الطبعة الرابعة عشرة، تعتبر قليلة العناوين طويلة الموضوعات بالنسبة لدائرة المعارف الأمريكية. وإذا عرفنا أن ملكية نشر دائرة المعارف البريطانية قد انتقلت إلى هيئة أمريكية، تعنى بها جامعة شيكاجو، مع ما عرفنا من توخي الأمريكيين تسهيل البحث على نحو عملي مجد، لاستطعنا أن نلمس ما سوف تكون عليه الطبعة الكلية من تقصير في المقالات، وإيراد عناوين متعددة للموضوعات وعناية بالإشارة إلى العناوين الفرعية، وكل ما من شأنه أن يعين الباحث في سهولة ويسر.

ومع ذلك فإن الطبعة الرابعة عشر لها فهرست موضح إلى حد كبير. وتلك وسيلة أخرى لإعانة الباحث وإرشاده، فلا تكاد تخلو دائرة معارف انجليزية أو أمريكية من فهرس في مجلد مستقل في الغالب، كما وجدنا في الموسوعة السابقة وكما نجد في الموسوعة الأمريكية "كومبتون المصورة" التي تعالج مقالات طويلة بخط واضح، والمطبوعة على ورق ممتاز، في أسلوب شيق جذاب، يتفق مع ما فيها من صور ولوحات وتوضيحات وعناية فائقة في الإخراج، إذ قد بها أن تكون مرجعا لطلبة المدارس ومن يماثلهم دون أن يحول ذلك من استخدام الكبار لها.

ومن مميزات دوائر المعارف كذلك إيراد قائمة بالمراجع والكتب التي تعالج كل موضوع على حدة في نهاية المقال حتى يُمكن الرجوع

إليها للتوسع، ويختلف مدى العناية بالتفصيل والتوسع في هذا القوائم تبعا للغرض وللطائفة التي تعنى الموسوعة بأن تقدم إليها، ولذلك يجب أن يدقق من يريد اختبار موسوعة لاقتنائها في المكتبة، في اختبار هذه الناحية إلى جانب النواحي الأخرى.

ومن أهم دوائر المعارف العالمية "الموسوعة الكبرى الفرنسية" وتعتبر أضخم المراجع، إذ تبلغ واحد وثلاثين مجلدا هي ومطبوعة بين عامي ١٨٨٦، ١٩٠٢، فهي إذن وان كانت من عيون المراجع، إلا أن أهميتها تقتصر على التاريخ والأدب والتراجم والفنون الجميلة، أكثر منها في العلوم الطبيعية والفنون العملية، لأنها لا تسجل ما حدث من تطور ضخم في التقدم العلمي، فهي – لعدم حداثتها – قاصرة من مثل هذه النواحي.

ومما تجب الإشارة إليه أنها ليس لها ملحقات كما هو الحال في المطبوعات المماثلة في انجلترا وأمريكا، التي تخرج الكتب السنوية السابقة الذكر، لتجعلها مسايرة للتطور المستمر الذي يسير قدمًا.

وتعتبر الموسوعة سابقة الذكر، سجلا المراجع في الموضوعات التي بيناها، وهي الموضوعات الأدبية والإنسانية البطيئة التطور منذ تاريخ نشر الموسوعة حتى الآن، ولا نعدم أن نجد في الفرنسية موسوعة أقل ضخامة من هذه الموسوعة الكبرى ونعنى بها "قاموس لاروس العالمي" الذي نشر الأول مرة بين عام ١٨٦٦، ١٨٩٠، إلا أن له طبعات جديدة وملحقات، بل إن له ملحقا شهريا مما يجعله أحدث وأهم من الموسوعة الأولى في

الموضوعات العلمية المتطورة.

ومن الموسوعات الألمانية "قاموس بروكهاوس" الذي ترجع طبعته الأولى إلى عامي ١٨٦٠، ١٨٦٦، والذي تأثر بتشامبرز في موسوعته الانجليزية، وطبعته الأخيرة ترجع إلى الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وعليه فتعتبر الموسوعة غير مسايرة لأحدث تطورات العلوم ومهما يكن من أمر، فهي تمتاز بالمقالات القصيرة، إلا أنها موقع عليها من مؤلفيها كما هو الحال في دائرة المعارف البريطانية. والتوقيع على المقال أيه من آيات الضمان لقيمة ما هو مكتوب، لأنه يشير غالبا إلى اسم عالم أخصائي في الموضوع المدروس، ولو أن ذلك لا يطبق إلى حد كبير في موسوعة بروكهاوس. والموسوعة ليست بالغة الضخامة كالموسوعة الفرنسية مثلا، وأنها تقع في خمسة عشر مجلدا. ويتميز قاموس "مايرز" الألماني كذلك بوجود خرائط عامة وخرائط المدن، ويحتوى على تراجم الأحياء ويقع في سبعة عشر مجلدا.

وأما "دائرة المعارف الايطالية" فهي أية من آيات الفن والجمال سواء في الطباعة أو في التنسيق أو في إخراج صور اللوحات الفنية إخراجا ممتازا، وكذلك الصور العادية والبيانات المصورة، كما أن مقالاتها ممتازة، وهي تورد مراجع وافية في آخر كل باب، وحتى مقالاتها الصغيرة موقع عليها بإمضاء كاتبيها.

وهكذا نجد في دوائر المعارف مميزات خاصة تميز كل منها وتحدد شخصيتها. فمن الضروري الإلمام بهذه المميزات لكي يُمكن

توجيه البحث على دعامة سليمة منذ البداية.

وللإيضاح، يُمكن أن تأخذ عدة أسئلة ملتمسين الإجابة عنها فيما سبق ذكره من هذه الموسوعات:

١- أين نجد حير صورة لجبال الألب؟

٢- أين نجد معلومات عامة عن التقدم العلمي في القرن السابع عشر؟

٣- أين يُمكن أن نجد خريطة لمدينة القاهرة؟

٤- أين نجد مقالة عن القطن. ليقرا طلبة البكالوريا؟

ونجيب على هذه الأسئلة كما يلي:-

١- قد أجد صورة لجبال الألب في الموسوعة البريطانية أو الأمريكية، أما دائرة المعارف الايطالية ضمن المجموعة التي أبحث فيها فيجب أن التمس فيها ما أريد، لأنها يجب أن تذكر، إذا ما ذكرت أجمل الصور واللوحات، ولأن جبال الألب تمر بايطاليا. وبالتالي تعنى الموسوعة بذكرها وبذكر كل ما يتعلق ببلادها بوجه خاص.

٢- في الحق إنه لسؤال محير، وذلك لأن المرء لا يتصور العنوان الذي يبحث فيه على وجه التحديد، تحت أي عنوان ابحث؟ ابحث تحت مادة علوم؟

وسوف أضيع وقتا طويلا في البحث إذا لم أكن اعلم أن دائرة المعارف الأمريكية تورد القرون تحت أسمائها، فتورد عنوان "القرن السابع عشر" مثلا حيث تذكر تحته أهم ما حدث فيه من تطورات

وتسجل أبرز خطوات تقدم الجنس البشرى في ذلك القرن.

٣- فأين أجد خريطة لمدينة القاهرة في مجموعة الموسوعات السابقة وحدها وليس فيها أطالس؟

من المعلوم أن معظم الموسوعات تحتوي على خرائط وصور، ولكن إلى حد محدود، غير أن إيجاد خريطة لمدينة القاهرة بالذات ليس ممكنا بادئ ذي بدء إلا لمن يعرف مميزات هذه المجموعة من الموسوعات، فإنه واجدها في قاموس مايرز الألماني في الغالب.

٥- فأين أجد مقالا عن القطن لطلبة البكالوريا؟

إن تحديد سن درجة ثقافة من أوجه لهم المقال، تحصر بحثي في موسوعة قصد بها أن تكون للطلبة، وفي المجموعة التي لدى، ليس أمامي غير "موسوعة كومبتون المصورة"، ولو انه يوجد غيرها في انجلترا وأمريكا، وهي أعدت للطلبة كذلك، مثل "الموسوعة البريطانية للصغار" وغيرها، كما توجد موسوعات للأطفال تعالج الموضوعات التي تلاءم سنهم وميولهم وفيها من الرسوم والصور ما هو شيق ممتع في نظرهم.

كتب مراجع أخرى

هذه أمثلة من ضرب معين من كتب المراجع التي تفيد في الاستعلام. وقد سبقت الإشارة إلى أنواع أخرى من المراجع والفهارس من العبث أن نحاول حتى مجرد الإلمام بها في هذا المقال.

وقد تكون دوائر المعارف من الانتشار والذيوع بحيث يصير الحديث عن قيمتها ومكانتها في الاستعلام من القول المعاد. ولكن

يوجد إلى جوار هذه المجلدات الضخمة كتب أخرى صغيرة رخيصة الثمن لها أهميتها في هذا المجال، مما يدل على أن الاستعلام يتجه إلى حيث تكون الحاجة إلى معلومات قد تبدو تافهة في نظر العلماء وغير العلماء، ولكن إيرادها ككتب استعلام، لا يعني شيئا آخر غير ما قلناه آنفا من أن العلم والمعرفة شيء آخر غير الاستعلام.

ومن هذه الكتب الهيئة الأمر، ما يُمكن أن نسميه الكتب السنية الإخبارية، وهي من أكثر كتب الاستعلام انتشارا واستخداما.

ولعل "تقويم هوتيكر" الانجليزي معروف لدى البعض، وقد يكون من الضروري أن نقول كلمة عن محتوياته كمثل لمحتويات هذه الكتب الإخبارية السنوية العامة. فهو يحتوى على تقويم فلكي، وثبت بالاختصارات العامة المصطلح عليها، وسجل بالأعياد القومية، ودواوين الحكومة، والشؤون التجارية والزراعية والصناعية، ويتضمن إحصائيات ومعلومات عملية عن جميع الدول، كما أنه دليل للمستشفيات والمدارس والأندية والبنوك وشركات التامين، والمرتبات والأجور، والرياضة، والجمارك، والضرائب، ومعلومات أخرى عن العلوم والاختراعات، والأدب والفن والموسيقي والتمثيليات والأفلام السينمائية والإذاعة.

وتوجد أنواع أخرى من الدليل، كدليل الأشخاص والتراجم، في كل بلد من بلاد العالم المتحضر، ودليل من ماتوا في غضون السنة التي ظهر في نهايتها الدليل. وهناك الدليل الدولي للأحياء، مثل تقويم "جوته" عن السامة وملوك العالم والأسر المالكة وأفرادها، والدليل الدولي الذي

تنشره دارأوروباللنشر بانجلترا، ويحوى معلومات عن أشهر العلماء والسياسة وأفذاذ الرجال في مختلف دول الأرض.

ويلاحظ أن ما ذكرت، إنما هو خاص بالمعاصرين والإحياء. أما كتب التراجم المطولة، مثل قاموس التراجم الوطني في انجلترا، ومثله في أمريكا فهي في الغالب للموتى من أبناء الدولة الواحدة، وهي أيضا سجل للمشاهير الذين بنوا وأقاموا مجد الأوطان.

وتوجد قواميس تراجم عالمية للأشخاص العالميين، الذين ساهموا في حضارة الإنسان، وشاركوا بعبقرياتهم الفذة في تشييد صروح العمران، أشهرها: (قاموس نيلسون) و(قاموس تشامبرز) و(قاموس هاموند المختصر) و(قاموس لبينكات للتراجم والأساطير) وليست قواميس أو موسوعات التراجم بالكتب المحدودة الحجم، فإن قاموس التراجم الوطني في انجلترا، يبلغ ثلاثة وستين مُجلدًا. ويحتاج البحث في كل منها إلى معرفة المجال الذي يدرسه القاموس.

وفهارس الكتب والمكتبات من المراجع البالغة الأهمية المعرفة الكتب التي كتبت عن موضوع معين، أو اسم الكتاب الذي ألف مؤلف بالذات، أو اسم المؤلف الذي ألف كتابا معينا، أو تحديد مكان وجود الكتب النادرة، أو الخاصة. ولكل نوع من أنواع الفهارس مميزاته، ومجال استخدامه عند الحاجة. كل هذا إلى جانب فهرس المكتبة التي يلجا إليها الفرد في بحثه، والذي يجب أن يكون مرشدا للمؤلف أو العنوان إذا جهل احدها، كما يجب أن ينظم بحيث يتضمن الكتب التي الفت

عن موضوع معين تحت عنوان هذا الموضوع، علاوة على إيجاد فهارس وقوائم مستقلة في موضوعات لها أهميتها الخاصة.

والمجلات بالغة الأهمية للأسباب الآتية:-

١- أنها تحوى احدث المعلومات التي تنشر بأسرع وسيلة.

٢- وهي تأتي بمعلومات قد لا تنشر في كتب مستقلة.

٣- وهي تدلنا من الناحية التاريخية على النحو الذي كان يفكر عليه الناس في عصورهم وبيئتهم.

وفهارس المجلات والدوريات تظهرنا على:-

١- أسماء المجلات التي تدرس موضوعات معينة كالكيمياء أو الطبيعة أو علم النفس، ويرشدنا إليها دليل مثل:

Ulrich periodicals directory, Bower Comp., N. Y.

٢- في أي المجلات، وفي أي عدد، وفي أي صفحة من المجلة يوجد موضوع بالذات ويرشدنا في ذلك

1- International index to Periodicals, Wilson New York.

2- Reader's guide to Periodicals, Wilson, N. Y

وهذا الأخير أقدم ظهورًا من الأول.

٣- في أي المكتبات العامة توجد مجموعات المجلة في تواريخ معينة ويرشدنا إلى ذلك قوائم مثل:

1- Union list of serials, , Wilson N. Y.

2- World list of scientific Periodicals, Cambridge.

٤- في أي بلد تطبع المجلة وتنشر. ويرشدنا إلى ذلك مثل دليلي: Ayre في أمريكا وMitchell في انجلترا.

٥- معظم الفهارس تشير إلى الناشر والثمن والعنوان.

٦- وترشدنا إلى اسم المجلة القديم إذا كان قد تغير.

ويمكن للاستعلام عن الحوادث الجارية استخدام فهارس الجرائد، وهي فهارس موضوعية لأمهات الصحف بصفة خاصة.

ويُمكن الاستعانة بالأطالس لمعرفة الحالة الجغرافية، والمناخ ولتحديد في أي دولة توجد بلد من البلدان، وخطوط سير السفن والملاحة والزمن والمسافة، وقد يقصد بالأطلس أن يكون تاريخيا مثل "أطالس فيليبس التاريخية".

ومن هذه المصادر أيضا، قوائم الأثمان، وأوصاف الأدوات والسلع، وجداول الزمن للقطارات والسيارات والسفن والطائرات وأنواع من دليل المتاحف والهيئات الحكومية والبنوك والجرائد والصحف والمعاهد والجمعيات العلمية واتحادات الغرف التجارية، ودليل المكتبات ودليل المهن المختلفة كالمحاماة والطب والهندسة والتمثيل والسينما الخ. وقيل هذا وذاك، دليل المدن، ودليل التليفون.

وهكذا تجد مختلف ألوان المراجع العامة من قواميس إلى دوائر معارف، إلى أنواع الدليل المختلفة التي حاولنا أن نتكلم عنها في اختصار وإبحار في هذا المقال، لنضرب مثلا لما نعنيه بكتب المراجع العامة التي تتميز عن كتب المراجع الخاصة بأن الأخيرة تدرس

موضوعات خاصة كالكيمياء أو الطبيعة أو الفلك أو الموسيقي إلخ.

ولأهمية هذه الكتب وما تستطيع أن تؤديه من خدمات تدرس كمادة من أهم المواد في برامج دراسة فن المكتبات، باسم المراجع والفهارس. وهذه الخدمات تعتبر خدمات أصيلة ورئيسية تقوم عليها المكتبة الحديثة التي ترشد أبناء المجتمع إلى الحقائق وإذا كانت المكتبة تعتب إعارة الكتب العادية حقا من حقوق المواطن، فإن إجابة هذا المواطن عن استعلام هو في حاجة لمعرفة الإجابة عليه لا يقل في أهميته عن إعارة الكتب وغيرها من الخدمات الرئيسية.

والأهم من هذا كله، هو أن نعلم أبناءنا طرق البحث سواء في المدرسة أو في الجامعة، وسواء أكان ذلك على نحو عام كما هو في الأولى، أم خاص كما هو في الجامعة، بحيث يلم الطالب بمناهج البحث في كتب المراجع العامة، ويلم كذلك يكتب المراجع في موضوع تخصصه.

إننا لا نريد قوما يحفظون ويحصلون، وإنما نريد أن نوجد جيلا يعرف أين يجد ما يريد حين يريد؟ وذلك في رأيي، هو سبيل قويم للتعليم، يمتلك به الطالب ناصية منهج من مناهج البحث والاستعلام، يواجه به مشاكل الحياة والمعرفة. فالفارق بين من يعتمد على ما حفظه وحصله من العلم ومن يعرف أين يبحث، كالفارق بين من يعتمد في معاشه على مال ورثه، ومن يعتمد على مهنة تعلمها، فكل قيمة الوارث في ماله، وأما صاحب المهنة فهو يحصل على معاشه بعلمه وخبرته التي

أصبحت جزءا من شخصيته.

وعلى كل، فالمعرفة والتحصيل والقراءة من ناحية، والإلمام وبسائل الاستعلام والبحث من ناحية أخرى، صنوان، وكل منهما يكمل الآخر، ولذا يجب أن نتعلم هذه الوسائل كما ننمى المعرفة ونيسر التحصيل ونجعله أمرا حيويا تأخذه عند الحاجة وعند تهيؤ النفس وتفتح الذهن.

والمكتبة في المدرسة جديرة بأن تعلم هذه الخدمات وتجعلها عادة، كما أن المكتبة العامة في الحياة هي الملاذ الذي يلجا إليه الفرد للاستعلام الصحيح المنزه عن الأغراض، ومن واجبها أن تمدنا بهذه الخدمات كما تؤديها في الغرب. وإذا كنا نتعلم هذا كله من المكتبة فيجب أن نتعلم منها أيضا الاعتماد على النفس في استخدام مراجع الاستعلام.

إننا بذلك لا نملك كنزا قد يضيع هباء أو قد يسرق، وإنما نملك مفتاحا لكنوز وثروة نستخرجها حين نحتاج إليها.

فهل حقا أن "الرجل الحكيم ليس هو بالضرورة من يعرف وإنما هو الذي يعرف أن يجد ما يحتاج إلى معرفته" ؟

يُمكن الرجوع إلى المراجع الرئيسية للمقال وهي:

Mccolvirt: How to use books.
Mudge: Guide to reference books.
Shore: Basic reference books.
Yanhousen: Bibliography.

فنون المكتبات

"لم يعد أخصائي المكتبة موظفًا إداريًا بعيدًا عن المساهمة في رسم سياسة نشاط المعهد الذي يعمل فيه، ولكنه شخص درس ومارس هذا الفن، فأصبحت عليه واجبات تربوية، وأنيطت به مسؤوليات اجتماعية خطيرة"

يحسب أكثر الناس في الشرق أن أعمال المكتبة إنما هي أعمال كتابية وضيعة الشأن، قليلة الجدوى، بحيث ينزلونها إلى مراتب الهوامش والتوافه، دون أن يفطنوا إلى ما لها من اثر عميق الغور ونفوذ فعال في تكوين المجتمعات ورفع مستوى الأمم، على نحو ما حاولت أن أبين في الفصول السابقة، مما تستطيعه المكتب في مجال الإصلاح الاجتماعي وأساليب التربية والتعليم والبحث وإنفاق وقت الفراغ.

وسبق أن بنيت مدى حاجتنا إلى معهد على الأقل لتخريج نخبة من ذوى الثقافة الممتازة للنهوض بهذه المؤسسات، ومدى أهمية تدريس هذه المواد في معاهد التربية لتخريج معلمين على إلمام بأساليب الخدمات المكتبية وبمهمة المكتبة الخطيرة في التعليم، وضرورة وجود هذا اللون من الدراسة في كل مجال من مجالات التعليم في مختلف المعاهد والكليات.

والاهتمام بالمكتبة أمر واضح في الحضارة الغربية التي عنيت بها،

وأقامت المعاهد المختلفة لتخريج الأخصائيين والخبراء فيها. وانتهي الأمر بالمكتبات إلى أن تكون آية النهضة، ومرآة العناية بالعلم والبحث، والتربية الشعبية وما كانت لتكون كذلك لو أنها أهملت أو اعتبرت ضربا من المخازن، وما كانت لتكون كذلك لو أن هذه الأمم الغربية لم تفطن إلى أهمية إذاعة هذه الدراسات، والتمرن على ألوان هذه الخدمات التي تعد لمهنة خاصة، فأمم الغرب آمنت بما هو شبيه بما ذكره الأستاذ "يوسف أسعد داغر" أمين دار الكتب اللبنانية في مقال له بمجلة الأديب، عدد كانون الثاني سنة ١٩٤٧، في عرضه لأهمية المكتبات، وضرورة العمل على إتاحة دراسات لها في الشرق فذكر ما قاله "كيويك" مفتش عام المكتبات بمدينة باريس حيث قال "إن الوسائل التجريبية والتعليم الذاتي يسببان ضياعا في الوقت واضطرابا في العمل وإفسادا لرسالة المكتبة، ومن ثم يجب أن يكون المشتغل بها قد اجتاز مرحلة التعليم ليحذق طريقة العمل والأخذ به".

وقد تقدمت دراسات المكتبات في الغرب حتى صارت جامعة مثل جامعة شيكاجو تمنح درجة الدكتوراه فيها، إلى جانب ما يقرب من ثلاثين جامعة أخرى في أنحاء الولايات المتحدة وحدها تمنح درجتي الأستاذية والبكالوريوس، ومن شروط الالتحاق لنيل درجة البكالوريوس أنه لابد أن يكون الطالب قد انتهى من نيل درجة جامعية في موضوع خاص وأن يكون قد اشتغل بالمكتبات.

وليس لي أن أحدثك عن مثل هذه المعاهد والجامعات في أنحاء

أوروبا، وإنما أقول أن بعض ولايات أمريكا الجنوبية،وهي ليست أرقى من بلادنا تحضرا ولا نهضة قد أنشأت معاهد من هذا القبيل إيمانا منها بالقيمة الاجتماعية والتربوية للمكتبات.

وفي كل بلد ناهض، اتحادات للمكتبات متعددة، وهيئات تشرف على رفع مستوى هذه المهنة والتقدم بهذا الفن، وإذاعة المؤلفات عنه، وتنسيق التعاون والخدمات بين المشتغلين به، سواء أكانت هذه الهيئات حكومية أم أهلية، ولكل منها مجلة دورية على الأقل تعني بنشر الأخبار الهامة عما يجد، ولا يتسع المجال لبسط أوجه النشاط المختلفة التي يقوم بها كل اتحاد وكل هيئة نهضت لخدمة المكتبات، باعتبارها جامعة لتعليم الشعب، وباعتبارها وسيلة للبحث والتقدم العلمي والتعليمي.

فماذا يتعلم الفرد ليكتسب الخبرة والمران وما هي الثقافة التي تؤهله للعمل بالمكتبة؟

إني لأقتضب الحديث، فأقول إنني لم أرجع إلى مراجع ضخمة لبيان أمثلة لما يدرس من الثقافة المكتبية، وإنما رجعت إلى نشرة مدرسة الخدمات المكتبية، بجامعة كولومبيا، بنيويورك، لعام ١٩٤٦ — ١٩٤٧ وقد ورد في برنامج الدراسة الكثير من الموضوعات، منها ما هو ضروري لابد من أن يدرسه كل طالب، ومنها ما هو اختياري يدرس حسب الميول إلى التخصص في فرع معين، وتتلخص الموضوعات الواردة في النشرة المشار إليها فيما يلي:

١- الفهرسة والتبويب، أي كيفية عمل الفهارس وبطاقاتها وتبويب

هذه البطاقات في تقسيم مصطلح عليه وموضوعات معروفة.

والغاية من ذلك إيجاد الوسيلة الفعالة لاطلاع القارئ على ما في المكتبة من كتب في سهولة ويسر ونظام، ويحتاج الطالب إلى إلمام بالاصطلاحات المتبعة والقواعد المرعية مع فهم لموضوع كل كتاب لا مكان تبويبه وإرشاد القارئ إليه.

٢- أساس الخدمات المكتبية من الناحية الاجتماعية والعلمية، وتطور المكتبة وأنظمتها وصلتها بالمعاهد التعليمية والمؤسسات الاجتماعية الخ.

٣- إدارة المكتبات وتنظيم العمل وتقسيمه، وواجبات الأخصائيين وعلاقتهم بها ومدى مسؤولية كل منهم في عمله الفني والإداري، والمؤهلات التي تشترط لكل عمل فيها وما إلى ذلك.

٤- الخدمات المكتبية الشعبية وأنواعها ومدى صلة الجمهور بالمكتبة، وكيفية عمل إحصائيات شاملة لدراسة المنطقة اجتماعيا ودراستها من ناحية الوسائل التي يُمكن أن تمتد بواسطتها الخدمات المختلفة لكل طائفة، وعلاقة المكتبة بالمؤسسات الحكومية والأهلية كالمدارس والجامعات الخ.

٥- المكتبات في الجامعة والكليات وعلاقتها بالتدريس، ومجلس الجامعة أو الكلية، وأنواع الخدمات الواجبة مع الاهتمام بالفهارس والمراجع وتقسيم العمل لجعل المكتبة وحدة وظيفية في منهج البحث والدراسة.. إلخ.

٦- المكتبات في المدرسة وتدرس صلتها بالمدرسة ومناهجها وأهميتها التربوية، ونواحي النشاط المتلائم مع النشاط المدرسي سواء من ناحية الدراسة أو وسائل إنفاق أوقات للفراغ، ودراسة عقلية التلميذ والموانع العقلية والجثمانية التي تحول دون تقدمه، وطرق إغرائه علي القراءة، وأنواع القراءة الملائمة لكل سن والفهارس والقوائم والدوريات التي تسجل الكتب الملائمة لعقليات التلاميذ في مختلف أعمارهم، وترتيب المكتبة بما يتلاءم وهذه العقليات.

٧- المكتبات في المؤسسات الخاصة كالشركات والسجون والمستشفيات، ومعرفة أغراض كل مؤسسة، وقد سبقت الإشارة إلى مثل هذه الخدمات في فصل "بروميثيوس" الجديد من هذا الكتاب.

٨- علم المراجع الخاص والعام، ويرمي إلى جعل الطالب خبيرا بكتب المراجع العامة، كدوائر المعارف والقواميس والمعاجم والأطالس وأنواع الدليل وفهارس المكتبات وفهارس الدوريات والنشرات والرسائل الجامعية وغيرها، وهذه إما عامة، للاستعلام الذي يحتاجه جمرة الناس أو خاصة بفرع معين من العلوم والفنون وبواسطتها يستطيع المرء أن يستعلم عما نشر في بحث خاص أو يقف على محتويات كل موضوع نشر في بحث بالذات أو يستعلم عن الشركات أو الهيئات أو المواعيد.. إلخ إلخ (راجع فصل "المعرفة من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث" من هذا الكتاب).

٩- فن اختبار الكتب وتقديرها ونقدرها وسنعرض له فيما بعد

بشيء من التفصيل كمثل من الثقافة المكتبية.

١٠- دراسات عن ميول القراء من البالغين، وعقلياتهم، والعوائق التي تعوقهم عن القراءة وخطواتها السيكولوجية، ومميزات كتب كل طائفة من طوائف البالغين، وكيفية تشجيعهم بواسطة برامج القراءة التي تنظمها المكتبة وغيرها الخ.

١١- مكتبات الأطفال وصلتها بالمكتبات العامة والمدارس، وجمعيات الأطفال، وعناصر الخدمات في مثل هذه المكتبات، وسيكولوجية الطفل وعلاقتها بالقراءة وسيول كل طائفة حسب السن والجنس والبيئة ومميزات الكتب الملائمة لكل منهم من ناحية الموضوع والرسوم والصور التوضيحية، ودور النشر التي تهتم بنشرها، وأشهر الكتاب الذين يكتبون للأطفال، وأشهر الكتب التي كتبت لكل طائفة منهم، والفهارس التي تسجل هذه الكتب ووسائل تشجيع الأطفال على القراءة بالأفلام والحفلات الموسيقية والمسابقات والمعارض وقص القصص عليهم تبعا لبرامج معينة، واتصال الأخصائية بالأطفال وتربيتهم وتعليمهم.

١٢- تاريخ الكتب والطباعة وتطورها، مثل الإلمام بطابع المخطوطات في مختلف العصور، وتطور الطباعة وحروفها وأشكالها وطرقها لا مكان تمييزها ومعرفة كل طابع .. الخ.

١٣- علم النفس التطبيقي للمكتبات والإفادة منه فيما يتعلق بالخدمات أو بالقراء وغير ذلك.

١٤- إعانة البالغين الكبار على القراءة، وهي دراسة لمن يهتم بخدمة البالغين الذين يريدون تعليم أنفسهم، لرغبتهم في تحسبن مستواهم. ذلك بخلق مهنة أو إرضاء هواية، وهذه الدراسة من شانها أن تجعل مرشد القراءة قادرا على فهم كل عقلية ومستواها. والكتب التي تصلح لها، وإعداد قوائم من الكتب ملائمة، لكل واحد من هؤلاء القراء، لبيان مستواه ومهنته وتعليمه ومدى تقدمه وهكذا.

١٥- تدريس أهمية المكتبات كمؤسسة تربوية، تعليمية وهو في الغالب لمن يهتمون بتدريس المكتبات وللمعلمين.

١٦- علاقة المكتبة بالمجتمع والبيئات المختلفة فيه والجمعيات والهيئات وتاريخ المجتمع وثقافته ولون الحياة السائد ووسائل خدمته وعمل احصائيات شاملة من الواقع.. إلخ.

١٧- مكتبات الموسيقى ووظيفتها وأهميتها وخدماتها، مثل جمع التسجيلات الصوتية، وطرق اختبارها، وإعدادها وفهرستها، والعناية بمعرفة أشهر التسجيلات، وأشهر الموسيقيين مع تميز الطوابع المختلفة لموسيقي كل شعب وعصر، إلى جانب أقسام الاستعلام عن مجلات ومعاهد الموسيقي ودورياتها، وأشهر شركات التسجيل واختصاص كل منها، والمسارح المختلفة وأشهر الممثلين الفنانين، والملحنين والمغنين.. إلخ.

١٨- خدمات المكتبات الطبية مثل الوقوف على مصادر المراجع في الأبحاث الطبية ومعرفة خصائص كل منها مع العناية بأوجه الاستعلام

والمراجع المختلفة التي تمت بصلة إلى الطب وشؤونه وأبحاثه ومعاهدة وأشهر رجالة في كل فرع.. إلخ.

١٩- دراسة صناعة النشر ووسائلها وأساليبها وأساليب الطبع والإعلان والدعاية وشركاتها، ويدرس إلى جانب ذلك طرق تلخيص وفهرسة المقالات العلمية وغيرها مما له خطر وشان في تطور العلوم والفنون وذلك لنشرها في دوريات تعتبر فهارس لمحتويات الكتب والمجلات والأبحاث في كل باب من أبواب المعرفة.

٢٠- فهرسة وتبويب المجلات والدوريات، وهي التي تختلف عن الكتب من حيث أعدادها ومجلداتها واستمرار صدورها مما يجعل لفهرستها وتبويبها نظما خاصة تختلف عما هو متسع في الكتب.

٢١- إدارة المكتبات الخاصة بالمرضى في المستشفيات وقد سبقت الإشارة إليها في فصل بروميثيوس الجديد.

٢٢- المكتبات القانونية وعلاقتها بالمؤسسات القانونية وأشهر المكتبات في هذا الموضوع والإلمام بكتب المراجع في البحث، ومصادر القوانين وكتبها والهيئات التي تنشرها وكيفية الحصول عليها، وكيفية جمع المعلومات من مصادر غير مطبوعة، وغير ذلك مما هو متعلق بكل مكتبة توقف على موضوع خاص.

٢٣- المطبوعات والمنشورات الحكومية وأنواعها ومصادرها وطرق الحصول عليها ووسائل استخدامها وفهرستها وتبويبها، وكل ما يتعلق بمثل هذه الخدمات في مطبوعات الدولة أو مطبوعات الدول الأجنبية.

٢٤- القصص المعاصر ومذاهبه وأنواعه واختلافه عن قصص القرن التاسع عشر وما سبقه، وأشهر المؤلفات، وأعلام المؤلفين في مختلف البلاد، مع العناية بالدوريات والفهارس التي تعنى بالقصص ونقده وتلخيصه، وأشهر الناشرين.. إلخ.

٢٥- الميكروفيلم وطرف استخدامه في الخدمات المكتبية، والميكروفيلم من شانه أن يصور الوثائق والمخطوطات التي تحتاجها المكتبة أو يحتاجها باحث في حين ضئيل جدا لتعرض في أي مكان آخر بواسطة آلة العرض. كما انه يصور الجرائد الكبرى مثل "النيويورك تيمس" فتحصل المكتبة على أفلام مصورة ضئيلة الحجم، فتوفر بذلك في خبرها بدلا من المجلدات الضخمة التي تملا فراغ المكتب، والمعروف أن المكتبات تعانى بمرور الوقت من ضيق المكان. وفي هذه الدراسة يلم الطلبة بوسائل التصوير المختلفة ومميزات ومضار كل منها وكيفية استخدام آلة العرض الخاصة بالميكروفيلم كما يتعلمون كيفية استخدام آلة التصوير وكيفية الحصول على الأفلام مع الإلمام بمصادرها وموضوعاتها وكيفية أعدادها وتنظيمها وكل ما يمت إلى هذا الفن بسبب.

٢٦- توضيحات ورسوم الأطفال وأنواعها وما يتلاءم منها مع كل جنس وسن وبيئة وأشهر الكتب التي تعنى بالرسوم وأشهر الرسامين وأشهر دور النشر.

٢٧- توضيحات ورسوم الكتب الأخرى وأنواعها ومدى أهمية كل نوع ومدى ضرورتها في كل موضوع وفي كل مستوى.

٢٨- هندسة البناء الخاصة بالمكتبات حسب حجم ووظيفة كل مكتبة والأصول التي يقوم على أساسها البناء ليكون وظيفيا، أي حسب ما تؤدي المكتبة من خدمات، وليكون مرنا قابلا للإضافة إليه أو لتغيير تقسيمه الداخلي ويراعي أهمية تسهيل ارتياد الجمهور له ومدى إقباله عليه.

٢٩- دراسة الخطوط والحروف في الطباعة وتطورها في مختلف العصور بالتفصيل.

٣٠- دراسة المكتبات في الريف وطابع الحياة الاقتصادية والاجتماعية ودرجة التعليم ومدى قربه واتصاله بالحضر، وأنواع الكتب والمطبوعات التي يُمكن أن يفيد منها، وكيفية إيجاد الخدمات المكتبية على نحو مجد.

٣١- الوسائل الفنية لإعداد منشورات ومطبوعات المكتبة، كالفهارس والنشرات وقوائم المكتبات وما إلى ذلك.

هذا برنامج الدراسة في جامعة واحدة لسنة دراسية واحدة، وتوجد دراسات أخرى في جامعات أخرى مما يمت إلى ما ذكرت بسبب.

ومهما يكن الأمر فإن الدارسة في بلد أجنبي لا تغني عما نريده من برامج لدراسة المكتبات في بلادنا، بحيث تتفق وثقافتها ولون حضارتها وطبيعة الحياة الاجتماعية فيها.

وقد اقترح الأستاذ يوسف أسعد داغر في مقاله آنف الذكر، بمجلة الأديب، عددا من الموضوعات جعلها أساسا لبرنامج دراسة هذا الفن

ليتفق وللثقافة العربية ونحن بدورنا نشير فيما يلي إلى رؤوس تلك الموضوعات التي اقترحها الأستاذ:

١- الكتاب وتاريخه ومادة الكتابة والورق والطباعة وتطورها في الشرق والغرب.

٢- علم الخطوط العربية ومدارسها وطابع كل مدرسة وتطور الخط.

٣- علم نقد النصوص.

٤- تاريخ المكتبات في الشرق والغرب.

٥- فن تنظيم المكتبات.

٦- علم الفهارس والمراجع.

٧- الثقافة العربية ومقوماتها السياسية العربية والغربية، والاتجاهات الحديثة وحركة النقل والترجمة.

٨- علم الصحافة والصحافة العربية.

٩- الاستشراق وتاريخه.

١٠- تاريخ علم الآثار الشرقية.

١١- أوليات علم العمارة.

١٢- اللهجات العربية وعلاقاتها باللغات السامية.

١٣- تاريخ الحضارة الإسلامية.

١٤- فلسفة التاريخ الشرقي والغربي.

١٥- دور المحفوظات في الشرق وفن تنظيمها.

تلك هي رؤوس الموضوعات التي اقتراحها كاتب المقال ومن الملاحظ انه يعنى بالدراسات الأدبية والثقافية والتاريخية إلى جانب الفن المهني لتنظيم المكتبة وإدارتها.

والواجب أن نهتم بالجانب العملي في هذه الدراسات على ألا يحول ذلك دون دراسة ما يتفق وحضارتنا، مثل ما اقترحه الأستاذ داغر.

ولما كان مجرد ذكر رؤوس عناوين الدراسات التي تدرس لا يكفي للدلالة على أهميتها وكتبها، فقد رأيت أن اختار منها موضوعا حيويا شيقا لأتناوله بشيء من التفصيل.

وقد راعيت فيه ألا يكون فنيا بحثا قاصرا على المشتغلين بالمكتبات وحدهم، وإنما هو موضوع مما يهم كل محب للبحث والمطالعة، وكل من يحفل بالكتب وقيمتها ويؤمن بقدرتها وأثرها. وأعني بذلك موضوع "فن اختيار الكتاب" الذي أعرض له في الفصول التالية في حدود مستوى المكتبة الشعبية، وصلتها بالثقافة ومستوياتها الاجتماعية العامة، وذلك حتى لا نخرج عن موضوع الكتاب وما للمكتبة والكتب من علاقات اجتماعية تبدو في الثقافة العامة التي تهيئتها للقارئ العادي.

فن اختيار الكتاب

"لا تقدر جهود المشتغلين بالمكتبات تبعا لكثرة الكتب التي أعاروها، ولا تبعا لما يدرون من مال يتفق على الكتب، وإنما المقياس الصحيح لنشاطهم هو المدى الذي وصلت إليه جهودهم في جعل

الكتب العظيمة شيئا حيا سائغا ملهما للناس، فإذا لم يكن المشتغل بالمكتبة ثقة في الكتب خبيرا بها، فإنه كالطبيب الذي لا يفيد عن علمه في العلاج". (مجلة مكتبات نيويورك يوليو سنة ١٩١١)

لما كان من المستحيل على المكتبة الشعبية أن تشتري جميع الكتب فإنها تحصل على ما هو جدير بالشراء، في حدود ميزانيتها، التي يخصص منها الربع لشراء الكتب، في حين يخصص النصف لأجور الموظفين، وأما الربع الباقي فينفق على الأثاث والتامين والنشر وتكاليف البناء والنظافة وما إلى ذلك.

ويقسم المبلغ الخاص بالكتب إلى ٤٠% لشراء الكتب الموضوعية و٣٠% للقصص والرحلات والتراجم و٣٠% تخصص لشراء كتب الأطفال والصبيان.

وتضع المكتبة نصب عينيها التوفيق بين مطالب الناس وما يرضي رغباتهم، وبين ما هو جدير بان يكون ثروة خصبة في حياة الجماعة.

ولذلك فقد عنيت المكتبة بدراسة هذه الرغبات والوقوف على التيارات الاجتماعية والنزعات التي تسود في فترة معينة والتي يزداد فيها الإقبال على لون معين من الكتب.

وقد بين الباحث الاجتماعي ليند في كتابيه عن دراسة نموذج للبلدة الأمريكية، مدى تأثير الأزمات الاقتصادية على القراءة، كما سجلت فترة الأزمة الاقتصادية الأمريكية إقبالا على لون معين من الكتب، كما سجلت حركات تقدمية إنشائية في تاريخ النشر مما هو ظاهر من

إحصائيات المكتبات في تلك الفترة.

ومعنى عناية المكتبة بالتيارات والتطورات الاجتماعية وأثرها في القراءة ليس شيئا آخر غير واجب من واجبات المكتبة الديمقراطية، التي تسعى إلى تعرف الميول السائدة ومحاولة تحقيق ما تصبو إليه دون أن تلبي ما يجب أن نؤديه لترفع مستوى الثقافة والذوق.

وتبدو هذه المشكلة بوضوح في المجتمع الضيق في البلدة الصغيرة أو القرية، حيث تكون الروابط قوية بين الأفراد، كما هي وثيقة بينهم وبين مؤسساتهم الشعبية كالمكتبة. وذلك لطبيعة حياتهم الاجتماعية. حيث يتوفر وقت الفراغ وهدوء البال وتفتح النفوس للقراءة من أثر في توثيق هذه الصلات، فتعنى المكتبة الشعبية في مثل هذه المجتمعات الضيقة خاصة بالمطالب والرغبات الاجتماعية والتوفيق بينها وبين ما يجب أن يبقي ويرقي بالفكر والحياة الثقافية والاجتماعية.

وهي تحاول أن تقف على مطالب القراء سواء بدراسة الحالات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والمهن والتقاليد السائدة والمؤسسات القائمة لخدمة الجماعة وغيرها، أو بدراسة الحالات الشخصية للقراء في المكتبة بواسطة مرشد القراءة وغيره.

وتصبو مع ذلك إلى الارتفاع بمستواهم، ولذلك فهي تختار الكتب الملائمة تبعا لمستوى معين وتبعا لمقاييس معينة، وذلك يستلزم الإلمام بأنواع الكتب وطريقة قراءتها ومقاييس نقدها والمراجع التي يرجع إليها لمعرفة قيمة الكتب ووسائل النقد ومميزاته وأساليبه وخبرة بالطباعة

والنشر.

وإلى جانب هذا كله فإن اختيار الكتب يستلزم الإلمام بالكتب العظيمة الرائعة والفهارس والمراجع في كل باب من أبواب المعرفة.

وهذا هو ما سوف نعرض له في فصلي:

١- الكتب في الميزان.

٢- جولة حول المعرفة.

أما عن مشكلة اختيار الكتب في المكتبات الخاصة فهي أقل تعقيدا وصعوبة منها في المكتبة الشعبية العامة التي تخدم طوائف متعددة وأمزجة متباينة، في حين أن مكتبة خاصة في كلية أو مدرسة أو جمعية تخدم طائفة متجانسة وتعنى بمستوى. وسأعالج هذه الموضوعات علاجا سريعا، مشيرا إلى المراجع لمن يريد التوسع.

الكتب في الميزان

ألوان من الكتب:

إن تقسيم المعرفة، منذ القدم، باب معروف في الفلسفة القديمة والوسيطة والحديثة، وإذا أنت أنظمة المكتبة الأولى في تبويب العلوم والمعارف قد تأثرت بتقسيم بيكون الفلسفي، فإن الأنظمة الحديثة للتقسيم لا تتأثر كثيرا بمنطق الفلسفة في هذه التقسيمات، لأنها تبوب المعرفة لغرض عملي، هو ترتيب الكتب في أماكنها على أسهل نحو للاهتداء إليها.

على أننا في عرضنا لألوان من الكتب لا تعنى بتبويب منها وملكات

الإنسان وميوله. فبعضها يغذي العقل، وبعضها تستسيغه المشاعر والعواطف، وثمة طائفة ثالثة من الكتب تعنى بالذاكرة مثل التاريخ، وضرب رابع منها يتخذ الخيال مسرحه مثل الشعر والقصص، وقد سبق ذكر تقسيم المكتبة للكتب التي منها ما هو جدي موضوعي وما هو خيالي، والأولى تخاطب العقول، والثانية تخاطب الخيال والمشاعر بوجه عام.

وثمة تقسيم آخر يجعل بعض الكتب أداتها الإلهام مثل اغلب كتب الدين والشعر والأدب والقصص الرائع، وبعضها الآخر متعلق بذكر الحقائق مثل التراجم والتاريخ والرحلات والكتب العلمية الخالصة والفنون العملية والعلوم الاجتماعية، وبعض ثالث غايته الترفيه وإنفاق الفراغ مثل المقالات والكتب المبسطة في الموضوعات الطلبة.

على أنه من المسلم به أن الكتب العظيمة لا تقف عند حدود هذه التقسيمات الملفقة، بل كثيرا ما تتعداها فتكون مصدر تعريف بالحقائق، ومصدر الهام، ووسيلة لأنفاق أمتع أوقات الفراغ. فمسرحيات شكسبير وقصص ديكنز هي لإنفاق وقت الفراغ، ومع ذلك فهي ملهمة، وقصة أحدب نوتردام لهوجو تجمع إلى كونها مسلية شيقة، إنها مصدر إيحاء ومصدر تعريف بالعصر الذي كتبت عنه. وكتاب مثل أصل الأنواع لداورن كتاب حقائق ونظريات،ومع ذلك فهو كتاب شائق موح معا.

ولكن ما هو الكتاب العظيم؟

أهو هذا الضرب من الكتب التي ينصح الجميع بقراءتها ومع ذلك

لا يقرؤها أحد.. كما يقول مارك توين؟!

لعل الكتب العظيمة لفظ يطلق على تلك الكتب التي اتخذت مكانها في عقول الناس وثبتت قيمتها فصارت على الأيام أكثر الكتب ذيوعا بينهم، يجدون في طلبها فكأنها كتب معاصرة حديثة في كل عصر وكل جيل.

ثم إن مثل هذه الكتب سائغة للجميع، فخاصة الناس وعامتهم يرضون عنها ويجدون فيها غذاء روحيا خصبا، أو يجدون فيها بعض نفوسهم لأنها تصور هذه النفوس، وتصور ميولها ونزعاتها فتخاطب الجميع وإن وضعت لتصف عصرا بعينه أو أشخاصا بالذات.

وإذا كان الناس يحفلون بالجدي من الكتب التي تنمي معارفهم فهل يجدر بالمكتبة أن تهتم وتحفل بالقصص إلى هذا الحد البعيد الذي نذهب إليه مع إننا في عصر الواقع والحقائق والعلوم التي تقوم عليها والفنون العملية التي تتخذ نتائج البحث في العلوم البحتة لتدعم الحضارة وتقيم العمران!

إن وظيفة القصص كوظائف الفن في الحياة فهي تصف الحياة، وتكرر حدوثها كما يسعد المرء بالاستمتاع بما فيها من أخيلة غذيه مشرقة، وكما يخفف من شقائه بما يلمس من شقاء الآخرين، فهي أداة تطهير من الآلام، كما هي وسيلة للسعادة وهي أيضا وسيلة خيالية للتعويض عما نشعر به من نقص وعما نحسه من حرمان.

فالقصة عالم خصب يرفعنا إلى عوالم أخرى للشرف على الحياة

أقوياء، وذلك على يد المربي البصير.

والواجب ألا نعنى بها كوسيلة لإنفاق الفراغ فحسب، بل كعامل للتربية الصالحة السوية، فإذا ما ترك القراء وشانهم فقد تؤدى إلى مثل الشرور التي تجمعت عن إذاعة كتاب (فرتر) حين نشره جوت، فكلنا نعلم أن أزمة نفسية اعترت الشيبة الأوروبية وانتهت بالكثيرين منهم إلى الانتحار إثر نشر ذلك الكتاب.

وإذا ما ترك الناس يقرؤون القصص فقد ينتج عنها انحلال مرضى شبيه ببعض ذلك الذي أصاب شيبة فرنسا في بعض عصور الأدب المنحل. وإذا ما ترك الناس يقرؤون بلا مرشد، فإن هذه الوسيلة قد تكون من أشد الوسائل فتكا بما أشيعه من تعلق بالأوهام، والتماس البطالة، وانحلال الخلق، والتحرر من التقاليد الصالحة، وقد أصبحنا في عصر لا يحتمل إضاعة الوقت والجهود في مثل هذا اللهو والعبث.

ومع ذلك كله، فما إلى هذا قصدت، حينما أردت أن أبين علة عناية المكتبة الحديثة بالقصة، وإنما كنت أرمي إلى إننا لن تتعلم كيف نقرا إذا لم نقرأ القصص! لأننا أن قصرنا القراءة على الكتب المدرسية، فسوف تورثنا البط حيثما لا يجب، ومعظم العوائق التي تعوقنا عن الإقبال على المكتبة ترجع إلى أننا تعلمنا من الكتب المدرسية كيف نقرأ، فلم نجد القراءة سائغة شيقة كما نجد ذلك في القصص، وإننا لم نستطع أن نقرا فيها بتلك السرعة التي نكتسبها بقراءة القصص.

هل القراءة فن؟

كما نختار كتابا يجب أن ننقده، وهذا لا يتأتي إلا بأن نعرف كيف نقرؤه. وكثير من الناس يسمعون عن القراءة والقراء الممتازين فيرون أنهم أمام أصحاب ملكات خارقة للعادة فهل هذا صحيح؟

يحدثنا القراء الممتازون أنهم لا يلقون أية صعوبة في مطالعاتهم، ما دامت تتفق مع ميولهم. والواقع أنهم ينسون الأيام الأولى التي بدأوا يتعلمون فيها هذه العملية الذهنية التي نجدها عملية عقلية معقدة من الناحية السيكولوجية، إذا ما أردنا تحليلها.

وتختلف القراءة سرعة وبطء، وسطحية وعمقا، وسهولة وصعوبة، حسب عوامل متعددة، منها درجة التعلم بوجه عام، ومدى الميل إلى الموضوع الذي يعالجه كل كتاب، كما تختلف حسب الغرض والغاية المنشودة من القراءة. فمن يقرا للتسلية غير من يقرا للدرس والنقد وهكذا.

وقد حلل أدلر في كتابه السابق الذكر (كيف نقرا كتابا؟) عملية القراءة إلى مراحل ثلاث وإن كانت متداخلة بحيث يصعب أن يميزها من تعود القراءة وسهلت عليه.

والمرحلة الأولى من هذه المراحل تحليلية نعرف فيها الكتاب ككل. ثم نسير من هذا الكل إلى أجزائه وفي هذه المرحلة نقف على نوع الكتاب، وموضوعه على التحديد، والغرض الذي يرمي إليه الكاتب، والأجزاء التي ينقسم إليها الكتاب، والمشاكل الأصيلة التي يحاول

حلها. ومعنى هذا أننا نعرف الكتاب وموضوعه وفصوله الرئيسية ككل ثم ننتهي إلى الأجزاء.

فأما المرحلة الثانية فهي مرحلة تكاملية أو تأليفية. فهي عكس الأولى التي بدأت بالكل وانتهت بالأجزاء. وفي هذه المرحلة يقف القارئ على أجزاء أدق وأكثر تفصيلا من الكتاب. فهو يعنى بالكلمات الهامة، والجمل المعبرة والفقرات التي تتركز فيها أغراض الكتاب وغايته وأسلوبه وشخصية الكاتب ومنهج علاجه للموضوع. وهو يفعل كل ذلك بالتفصيل، ليرد هذه الأجزاء الدقيقة إلى الكتاب ويربط الجزئيات بالكليات فإذا كانت المرحلة الأولى تقف عند تحديد المشكلة التي عرض لها الكتاب فإن المرحلة الثانية تنتهي بالوقوف على ما بذل من جهد وما أعمل من فكر، ومدى ما أصاب من توفيق ونجاح في حل المشكلة بعد النفاذ إلى أعماقها.

فأما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الحكم والوزن والتقدير، أي هي مرحلة النقد الذي لا يجب أن يقف عند حدود الكتاب، وإنما هو يقارنه بغيره من الكتب التي كتبت في الموضوع وفي مثل المستوى الذي كتب فيه الكتاب. ولذلك فالناقد قد يحتاج إلى دراسة سابقة وخبرة بالموضوع كما هو معلوم في النقد.

وقد لاحظ أدلر في التجارب التي أجراها على القراء أن تعلم القراءة يسير في تقدم مطرد سريع، بحيث تكون النتائج مبشرة بالنجاح الكامل في أول الأمر، ثم لا تلبث هذه السرعة أن يعقبها هبوط يؤدى

إلى اليأس في بعض الأحيان. والواقع أن عملية تعلم معقدة مثل القراءة، أو حتى عملية معقدة تغلب عليها الآلية كتعلم الكتابة على الكمبيوتر من شانها أن تسير على هذا النحو. فيجب أن تذكر أن التراجع هو جزء من السير الطبيعي لاكتساب هذه العادة المعقدة التي تبدو سهلة عند من اعتادوها.

وفي كتاب "هيدلي" السابق الذكر، في نفس الصفحات التي سبقت الإشارة إليها، نجد تحليلا آخر للعوامل التي تعوق عملية القراءة مثل وضع الجسم وحركته، وحركة الأعضاء الصوتية التي تعمل،ولو كنا نقرأ بلا صوت، كما تعوق حركة العين التي تريد أن تفحص كل كلية على حدة، بينما الواجب أن تقتصد في حركاتها وأن ترى الكلمات في مجموعات ولا نراها متفرقة، ومن العوائق التي أشار إليها (هيدلي) كذلك مدة الفهم. فمن تعود القراءة يتعرف على الكلمة بمجرد رؤيتها في مجموعات، وكذلك يعوق عدم إدراك المرء رسم الكلمات. فالخبير بالمطالعة يميز رسم الكلمات الكثيرة الاستخدام في لمحة خاطفة كما يدرك أهمية الكلمات ذات الدلالة والتعبير النفاذ عن الموضوع في لمحة كذلك.

ألا ترى معي أن القراءة فن معقد يسهل إذا عرفنا كيف نتعلمه؟ ومع ذلك لن ننتظر الكتب التي تعلمنا إياه، وإنما لنبدأ في قراءة ما يحلو لنا في سرعة خاطفة لنعتاد السرعة.. لنقرا القصص فهي خير ما يبدأ به المرء في هذا المضمار.. وحبذا لو كنا نتعامل مع مكتبة نفهم ونقدر وتستطيع القيام بواجباتها وترشدنا في هذه الأفاق الشاسعة.

ميزان الكُتب ونقدها:

هل من جديد في النقد الذي نعرفه؟ وهل هناك محك معين تقاس عليه الكتب التي تعرض علينا أو التي تكتب عنها الصحف الخاصة والعامة؟

نحن نعرف النقد الأدبي الذي ينصب على الأدب بشعره ونثره مع اختلاف المدارس الكلاسيكية والحديثة، وهي التي تعنى بتحليل عناصر الأدب وبيان ما فيها من جمال وفن. كما نعرف مدى اختلاف النقاد ومدى التباين في نظرياتهم من حيث عناية البعض بالأسلوب أو الصور الفنية أو الفكرة. ونعرف أيضا اهتمام بعضهم بعناصر الإبداع والخلق، ورد الفن إلى أصوله الجمالية وملابساته النفسية، وهذه المدارس مثل ما نجده في الأدب العربي والأوروبي مثل مذاهب سانت بيف، وليمتر، وماتيو ارنولد، وريتشارد زه وابر كرومي، وغيرهم. ولا شأن لنا بهم لأننا لا نقصر نقدنا على الأدب وحده. ولا تعمم أحكامنا على القديم والحديث، وإنما نقصرها على الحديث الجديد من الكتب. ولا شأن لنا بالنقد الأدبي مرة أخرى لأننا بصدد حيز محدود من النقد فليس علينا – ونحن نختار كتبا للمكتبة – أن نقرا مجلدات في نقد كتاب واحد، لأنه فضلا عن استحالة هذا الأمر في الكتب الجديدة، فإن وقت عملنا محدود، وعلينا أن نختار كل عام للمكتبة آلافا من الكتب.

فالنقد الذي نعنيه هو ما يطلق عليه Review وهو يتعلق بالكتب الجديدة وحدها على نحو ما يظهر في الصحف السيارة والمجلات

العامة والخاصة. وهو نقد سريع يظهر خصائص الكتاب ومميزاته التي يتفوق بها على غيره والمستوى الذي يعالج به المؤلف موضوعه. وإذا كنا نجد ذلك اللون من النقد قاصرا عندنا محدودا، في صحفنا، فإننا نجده في الغرب شاملا متعدد الجوانب واسع المدى. وحسبنا أن نعلم أن الصحف الكبرى في الولايات المتحدة مثل نيويورك تيمس، ونيويورك هيرالد تريبوده وشيكاجو صن.. وغيرها، تصدر ملاحقا أسبوعية يوم الأحد، تخصص لنقد الكتب الجديدة. وكذلك الحال في الصحف الأوروبية الكبرى، مثل جريدة التيمس بلندن.

والملاحظ في مثل هذه الملاحق الصحفية أنها تبلغ أحيانا خمسين صفحة ولا تقل عن ثلاثين، وهي عادة في حجم يعادل نصف حجم صحيفة الجريدة العادية أو اقل قليلا. ومع أن هذه الملاحق عامة إلا أنها ذات فائدة بالغة عميقة في التنبيه إلى الجديد من الكتب، على أنها لا تسجل كل الكتب الجديدة كما تفعل مثلا Book Review Digest وهي التي تشير إلى مميزات كل الكتب الجديدة في جمل قليلة واضحة، على أن التوسع في مثل هذا النقد حين يحتاج إليه في الموضوعات الخاصة، يرجع إليه في المجلات الخاصة بذلك، والتي تعنى بتسجيل التطورات الفكرية في باب اختصاصها مثل المجلة الآتية، التي تعنى بالأدب والفنون الأدبية Saturday Review of literature التي تصدر بنيويورك، أو مثل ما تفعل على نطاق أضيق مجلتي Sciences Nature في النواحي العلمية. ويلاحظ أن هذه المجلات التي تعنى بالنقد غير الفهارس الدورية التي تقتصر على مجرد تسجيل الكتب أو

تسجيل محتوياتها والتي سأشير إليها فيما بعد.

والمشتغل بالمكتبة، والمهتم بالكتب الجديدة، يجب أن يلم بالنقد وأساليبه ومقاييسه التي سنعرض لها، كما يختار الكتاب على أساس صحيح، دون أن يخدع بالنقد المزيف، المتأثر بالإعلانات أو بعوامل أخرى غي قيمة الكتاب نفسه، مثل التأثر بمكانة الصحيفة أو مكان دار النشر أو مكانة المؤلف وشهرته وصلته بالناقة. وقد لا يفطن من يختار الكتاب إلى قصور النقد، أو تعصبه أو التعجل في كتابته.

ويجب أن يلم خبير المكتبة بمقاييس النقد، لأنه من واجبه هو أن يكتب نقدا موجزا عن بعض الكتب للمكتبة، وذلك حين تعد نشرات من هذا القبيل عن الكتب الممتازة، أو حين تنشر أو تذيع على الناس نبذات عن هذه الكتب ترغيبا وتحبيبا في الإقبال عليها.

فأما النقد الموجز Annotation الذي يماثل هذا الذي تحتاجه المكتبة في الغالب فهو مقتضب بالغ الإيجاز لا يتعدى خمسين أو ستين كلمة على الأكثر، في حين أن النقد الصحفي قد يشمل صفحتين أو ثلاث من تلك الصحف الضخمة. وإن كانت العناصر في كل من النقدين متشابهة أو واحدة لا تختلف إلا في الحجم والعرض.

والموجز من النقد عبارة عن عرض سريع مقتضب لبيان موضوع الكتاب وخصائصه، والإشارة إلى روحه وأسلوبه، ومداه وقيمته. فما أشبهه، في اقتضابه المعبر، بالصور الكاريكاتورية التي ليست غير خطوط سريعة تلخص خصائص الشخصيات. ولذلك فكثيرا ما تستخدم بعض

ألفاظ المؤلف المعبرة، أو جملة من جملة القوية الدلالة على موضوعه، إلى جانب إشارات الناقد عن الكتاب.

وإذا كان هذا النقد يكتب تحت البيانات الرئيسية عن الكتاب، كاسم المؤلف، وعنوان الكتاب، وناشره ومكان النشر، وعدد الصور والرسوم، والحجم، وعدد الصفحات، فليس ثمة ما يدعو إلى تكرار هذه المعلومات في صلب النقد نفسه، اللهم إلا إذا كان جزءا من هذه البيانات الرئيسية غير واضح. ومثل ذلك إننا لو فرضنا إننا بصدد نقد كتاب (تاريخ انجلترا) لماكولي، فيجب أن نبين في صلب النقد أن هذا الكتاب إنما يقتصر على دراسة سبعة عشر عاما من تاريخ انجلترا فحسب. ولو لم نفعل ذلك استنادا على عنوان الكتاب، المذكور في صدر البطاقة، لكان تقصيرا ونقصا.

وليس معنى الاقتضاب في النقد الموجز أن يكون باهتا شاحبا لا طعم له، كأن يكون عاما من الممكن أن يطلق على آلاف الكتب. وذلك مثل قول الناقد "إن قراءة هذا الكتاب، إنما هو مشاركة في أبرع مخاطرات التاريخ كلها".

وإنما يكون النقد معبرا ملخصا قويا نفاذا مثل النقد التالي لرواية (الفلاحين) لريمونت، وهي إحدى الروايات التي نالت جائزة نوبل "مجال حسن لتصوير حياة الريف البولوني، هائمة في تفاصيل دقيقة لوصف جمال مشاهد الطبيعة في فصول السنة، وعقدة القصة تتركز في الإحساس القوى بحب الأرض وتنافس الابن وأبيه في الهيام بامرأة

واحدة، غير أن الاهتمام بتصوير أفراح الريفيين وولائهم لا تقل عن الاهتمام بوصف حب الأرض، تلك هي الملحمة ذات الأربعة مجلدات التي نالت جائزة نوبل".

ولكن ما هي معايير النقد التي أطلنا الحديث عنها؟

لكل من الكتب الجدية من ناحية، والقصص من ناحية أخرى، مقاييس مختلفة يحاولون حصرها.

فأما الكتب الجادة الموضوعية التي تشمل العلوم والفنون والدراسات الأدبية والتاريخ والعلوم الاجتماعية،وكل ما هو بصدد دراسة موضوعية فإنها تقدر من يحث: مادتها، ومدى الثقة في المؤلف، ومميزات الكتاب الموضوعية، ومميزاته الشكلية.

ومن حيث مادته فنحن تدرسه لنلتمس الإجابة على الأسئلة الآتية:

ما هو موضوع الكتاب؟ وما هو مدى اتساع نطاق البحث فنعرف ما إذا كان يدرس الموضوع جميعه أو مر يعرض لنقطة معينة أو لجزء منه؟ وهل يعرض الكتاب نظرية معينة أو يقترح علاجا عمليا للمشكلة أو هو يقتصر على الحقائق ويسوق الحجج الجدلية؟ وهل يعرض للموضوع في اقتضاب أو هو يتوسع فيه؟ وهل يعالجه في ثوان أو يتحيز لنظريات معينة فيه ويقتصر عليها مجافيا روح الاعتدال؟ وهل يعالج الكتاب الموضوع علاجا واقعيا أو يعرض له نظريا تجريديا؟ أم هو بين؟ والى أي قارئ يُمكن أن يساق؟ التلاميذ أو للمعلمين، أو للقارئ العادي أو للمختصين؟ وما هو تاريخ نشر الكتاب حتى تستوثق من قيمته إذا كان

يعالج ناحية علمية من الضروري أن تكون متتبعة للحديث الجديد من البحوث؟

أما مدى الثقة في المؤلف فتتوقف معرفتها على بحث: مؤهلات المؤلف وتعليمه ومرانه وثقافته؟ وهل رجع إلى المصادر الأصيلة لبحثه أو رجع إلى مصادر ثانوية؟ وهل يقوم موضوعه على البحث العلمي الخالص أو على ملاحظاته الشخصية؟ وهل دقيق في بحثه؟ وهل يلم بالعصر الذي يكتب عنه، أو بالنظريات التي يعالجها؟ وأخيرا نبحث هل هو متعصب أو متزمت، أو هو تقليدي محافظ؟

وأما مميزات الكتاب الموضوعية فنحن نبحثها لنجد جوابا عن: هل يبين عن قدرة مبدعة وملكة خالقة؟ وهل هو يتميز بالإخلاص والصراحة؟ وهل ترتيب الموضوع مناسب للفكرة؟ وهل للمؤلف أصالة في تعبيره؟ وهل أسلوبه سهل واضح، أو هو جذاب شائق، أو عميق، أو خيالي؟ وهل الكتاب الذي نحن بصدده قادر على البقاء؟

وأما مميزات الكتاب الشكلية فيظهرنا عليها بحث ما يأتي:

هل للكتاب معجم خاص بالأعلام والموضوعات بالدقة والتفصيل؟ وهل يحتوي على رسوم أو بيانات أو صور لازمة للتوضيح؟ وهل شكل الكتاب متميز وورقه صالح؟

وللقصص معايير في نقدها بحيث ينطبق عليها الكثير مما قلناه عن الكتب التي ليست خيالية وليست قصصا مضافا إليه التماس الإجابة على طائفة من الأسئلة التي يُمكن التوسع في بحثها في غير هذا المكان

ولبيان هذه المقاييس يتلخص في الإجابة على:

هل تتميز القصة في نوعها من حيث هي تمثل لونا واضحا من الواقعية أو الرومانتيكية أو هي نحو منحى نفسيا أو هي قصة مرحة؟

وهل هي مطابقة للواقع أو هي مبالغة في الناحية العاطفية أو هي منحرفة أو شاذة؟

وهل هي متماسكة الشخصيات من ناحية تصويرها لهم؟ أو هل تعنى بدراسة نفسيات الأبطال وتحليلها كما هو الحال في روايات مارسيل بروست واندريه جيد وشارك موراس واندريه موروا إلى حدا ما؟ وهل العناية بدراسة للنفسية تدعو إلى تطبيق النظريات العلمية بدقة ملفقة لا تتفق مع الإبداع الفني كما هو الحال في قصص بول بورجيه؟ وهل تكشف من وراء شخصياتها عن معان انسانية عميقة أو صادقة أو موحية بالمشاركة الوجدانية؟

وهل عقدة القصة أصيلة الحبكة أم هي سهلة مختلفة ومحتملة؟

وهل تثير في النفس أفكارًا وإحساسًا عميقًا بالحياة، أو هي لمجرد انفاق الفراغ؟

هل هي من هذا الضرب الذي يبدو تافها، لأنه يعالج توافه الحياة، ومع ذلك يوحي من وراء بساطته بمشاعر زاخرة وأفكار عميقة؟

معرفة الكتب الجديدة

كيف السبيل إلى معرفة كل كتاب ظهر والوقوف على كل جديد في عالم الكتب والمطبوعات؟

لم يتح لنا بعد في الشرق العربي أن نجد فهارس دورية تسجل جميع ما نشر سواء في موضوع خاص، أو جميع ما نشر على نحو عام شامل، وهذا نقص لا يُمكن اغفاله والسكوت عليه.

وإذا كانت بعض الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية أو الشهرية عندنا تعنى بنقد الكتب الجديدة، فإنها إنما تفعل ذلك لا على سبيل الاحصاء، بل هي تقتصر في الغالب على الكتب التي تهدى إليها، أو التي لمؤلفيها بالنقاد صلات، أو لهم شهرة وصيت. وكثيرًا ما تغفل الصحف الاشارة إلى الكثير مما يصل إليها. وكيفما كان الأمر فإن هذا النوع من النقد ليس شاملا كافيا. فهو لم يقصد به أن يكون سجلا للنقد وقفا عليه، حتى يُمكن الرجوع إليه في المكتبات، حيث يعني الباحثون والمؤلفون ومن إليهم بالاهتداء إلى مراجع فيما يحتاجون إلى بحثه والاطلاع عليه.

وقد قامت إدارة التسجيل بوزارة المعارف بعمل سجل الكتب التي صدرت خلال عامي ٤٧، ٤٨ في سجلها الثقافي.

كذلك استبانت الهيئة الثقافية لجامعة الدول العربية أهمية وجود فهارس دورية تسجل الكتب الجديدة في العالم العربي فأزمعت إصدار شبه مجلة من هذا القبيل كما أذاعت ذلك ضمن أغراضها الثقافية لتحقيق التعاون الثقافي بين البلاد العربية.

ونجد في الغرب الفهارس التي من هذا القبيل متعددة متباينة، منها ما هو عبارة عن قوائم الكتب المختارة في فترة معينة مثل (فهرس اتحاد

المكتبات الامريكي للمكتبات الشعبية) الذي صدر عام ١٩٠٤ ثم صدر ١٩١٣ حتى نشر عام ١٩٣٣ فهرس في نفس المستوى، ولكنه يزيد على سابقيه أنه يعرض لنقد وعرض موجز لكل كتاب.

ومثل هذه القوائم قائمة "شو" عن كتب الكليات والجامعات التي نشرها اتحاد المكتبات الامريكي عام ١٩٣١. وكذلك قائمة كتب المدارس الثانوية التي أعدها (زايدى براون) ونشرها ويلسون، الناشر الذائع الصيت للفهارس والمراجع، عام ١٩٣٢.

ومثل هذه القوائم مختارة فهي ليست شاملة، بل لطائفة محدودة ولمستوى معين من القراء، وإنها تقف عند تاريخ بالذات، لأنها تختار الكتب فب فترة معينة، وإذا كانت أهميتها حين ظهرت لا يُمكن إنكارها، فإنها اليوم تستطيع أن ترشدنا في مجال البحث عن كتاب صدر في الفترة التي تبحث فيها كل قائمة، بحيث يكون هذا الكتاب في المستوى الذي تختص به كل منها.

وإلى جانب هذه القوائم توجد دوريات أو مجلات تختص إما بمجرد تسجيل الجديد الذي ظهر، أو قد تضيف إلى كل كتاب كلمة عن محتوياته، وقد تصدر أسبوعيا مثل "نشرة الناشرين الأسبوعية".

1- Publisher’s Weekly, Bowker Comp., V. Y.

وتتضمن الكتب الجديدة مع عرض موجز لها، وتضم بعد ذلك عند الناشر ليصدر منها فهرس الناشرين السنوي.

وتصدر المجلة الآتية في فترة أطول.

Book Review Digest, Wilson, N. Y.

وهي تعرض لنقد الكتب كذلك. وتجمع منها لدى الناشر مجلدات بحيث تكون مرجعا لكل كتاب صدر في السنين الماضية، إلى جانب فائدة النشرة في الإبانة عن الكتب الحديثة التي صدرت في الفترة التي ظهرت فيها.

ومعنى ذلك أن مثل هذه الدورية إذ تجمع بمجلداتها تعد مرجعا من أهم المراجع عن تسجيل الكتب ونقدها في الأعوام السابقة. كما أن النشرات الحديثة تفيد في اختيار الكتب الوشيكة النشر الحديثة الصدور.

ومن هذه الدوريات

Cumulative Book Index, Wilson, N. Y.

وهو فهرس دوري يصدر كل شهر، وكل ثلاثة أشهر، وكل سنة، وكل سنة، وتباع منه مجلدات عن عدة أعوام سابقة تصلح كمرجع يسجل الكتب التي صدرت عن هذه الأعوام.

وهذا الفهرس نافع في الإفادة عن أسماء الكتب ومؤلفيها وموضوعاتها ويقتصر على تسجيلها دون نقد، ويعتبر من عيون المراجع وأشملها عن الكتب التي صدرت بالانكليزية في أمريكا وانجلترا وغيرها.

وتوجد هناك دوريات وفهارس من الموضوعات الخاصة، كالطب والهندسة والأدب وما إلى ذلك، وليس هنا مجال الإشارة إليها، لأننا نعالج فصولا عامة عن أهعمية المكتبة، لا للمختصين المتوفرين على البحث الخاص.

وتوجد مثل هذه الدوريات في جميع البلاد الأوروبية، وما ذكرنا غير أمثلة لتوضيح أهميتها ومدى حاجتنا إلى العناية بها.

الخبرة بالنشر والطباعة:

ما زلنا نحبو في ميدان النشر، وقيمة النشر ووظيفته ليست بالأمر الهين. فالناشر – على حد تعبير (جون مورلى) في كتابه "ذكريات" – ما هو غير السلطان المسيطر على دولة الأدب، وهو لا يقل بحال عن رجل الدولة.

ولست بحاجة إلى القول بأن النشر مساير في تطوره للتطور الثقافي والاجتماعي، وعلى كل من يريد أن يدرس الأدب الحديث وتاريخه أن يعني بتطور النشر.

وقد تطورت هذه الصناعة في الغرب، فوصلت إلى أرقى درجاتها وأوسع سلطانها بحيث صار لها ولأصحابها من الوجاهة الاجتماعية ما استطاع معه (جون هارير) صاحب دار النشر الأمريكية، الذائعة الصيت المعروفة باسمه، أن يصير عمدة لمدينة نيويورك. وهذا يعطينا مثلا واضحا على مدى صدق قول مورلي عن سلطة النشر وسلطانه.

وإذا كنا في المكتبة نعني بالكتب، وهي ثمرة من ثمرات النشر كما هي من ثمرات العقل والفكر، فيجب أن نلم إلماما بماهية هذه الصناعة، ونشاطها وسياستها وأشهر دورها ومؤسساتها، والخطة المتبعة في الدعاية والإعلان، والبيع وحقوق الناشر، وحقوق المؤلف، واختصاص كل ناشر، والنواحي، التي يعتمد عليه فيها، فبعضهم يعنى بالكتب العلمية البحتة،

وفريق يعنى بالفنون العملية، وثالث يعني بالقصص وما إليها، بل نجد من هذا الفريق الأخير من يعنى بالقصص الرائع القديم، ومن يعنى بالقصص البوليسي، ومن يعني بالطبعات الرخيصة من عيون القصص وما إلى ذلك.

كما أن بعض الجامعات تعنى بنشر كتب خاصة، مثل جامعة شيكاجو واهتمامها بإذاعة كتب في الثقافة المكتبية، إلى جانب عنايتها بألوان أخرى من العلوم، وكذلك جامعة كولومبيا.

وهناك هيئات خاصة تنشر ما يتعلق بنواحي اهتمامها، واختصاصها، مثل اتحاد المكتبات الأمريكي، الذي ينشر معظم ما يصدر من الكتب عن الدراسات المكتبية في أمريكا.

وهناك الأندية الخاصة مثل نادي كتاب الشهر الذي يوزع كتبا خاصة للمشتركين بالاتفاق مع بعض الناشرين الآخرين بأمريكا.

وهناك المنشورات الحكومية المختلفة التي تصدر عن دواوين الحكومة ومصالحها ومعاملها المتباينة. وهذه منها ما يباع وما لا يباع. وتحتاج إلى تخصص لدراستها، وخاصة في بلد تنعقد فيه وتتشعب وتتباين هذه المطبوعات مثل أمريكا، ولتحقق ما أذهب إليه، يُمكن قراءة كتاب "المنشورات الحكومية" ليوبد.

ويمكن لمعرفة اختصاص الناشرين قراءة فهرس "السوق الأدبية" وهو كتاب سنوي تصدره دار "باوكر" للنشر بنيويورك، كما يُمكن الرجوع إلى كتاب هارير عن صناعة النشر، وكتاب ميريك (أوليات فن اختيار الكتاب).

ومما يرتبط بهذه الصناعة الالمام بحقوق التأليف[1] وما له من تاريخ وثيق بتطور السياسة ونظم الحكم وطابع الحضارة. ففي القرون الوسطى كان من المحظور نشر ما هو مخالف للدين. ثم استبد بعض الحكام فصارت هذه الرقابة السلاح الذي يقضون به على ما لا يتفق نشره مع ميولهم وسلطانهم، واتجه الحظر إلى ما يرمي إلى إثارة الرغبات الجنسية، وما لا يتفق مع الحد الذي يجب أن يراعى من الآداب. ولا زالت الدول متأثرة بالتقاليد الجارية، والآداب العامة في كل ما تبيح نشره بين الناس.

ويقال أن أول من نادى بحقوق التأليف هو مارتن لوثر، لا لرغبة في الكسب المادي، وإنما لأنه كان يخشى أن تنشر كتبه محرفة. وبدأ الاعتراف بهذه الحقوق بأن كان يختم كل كتاب أجيز نشره بخاتم الحاكم.

وانتظمت حقوق التأليف في انجلترا سنة ١٩١١ بقانون حفظ حق المؤلف أثناء حياته، وإلى خمسين سنة بعد وفاته، ولو أن القانون يتساهل في طبع الكتاب بدون الحصول على موافقة ورثة المؤلف بعد مدة أقل بما نص عنها. ويقضي هذا القانون بإيداع نسخة من كل كتاب يطبع في الامبراطورية البريطانية في المتحف البريطاني.

وفي عام ١٨٨٧ عقدت اتفاقية (برن) بين عدد من الدول الأوروبية. فلم تكن منها الصين ولا روسيا ولا الولايات المتحدة الأمريكية ويتضمن الاتفاق احترام حقوق التأليف في كل الدول الموقعة.

---

(1) دائرة معارف العلوم الاجتماعية، الجزء الرابع، ص٤٠١ - ٤٠٤.

وأما في الولايات المتحدة، فإن حقوق التأليف لها قصة وتاريخ يتجلى فيه مدى اعتداء الناشر والطابع على حقوق المؤلف. فنحن نعلم أن النشر كان قاصرًا في بادى. الأمر على الكتب الانجليزية، حتى إذا تكونت عناصر القومية في البلد الناشئ، بدأ الإقبال على كتب المؤلفين الأمريكيين، الذين لم يكن لهم من الثقافة والقدرة ما يستطيعون معه منافسة الكتاب الانجليزي، فما لمس الناشرون ذلك، حتى بدأوا السطو على الكتب الانجليزية فطبعوها طبعات رخيصة، تجد الرواج والذيوع لرخص ثمنها، ما دام الناشر لا يدفع للمؤلف الانجليزي شيئًا إذ ليست له حقوق تبعا للقانون الأمريكي. وكاد المؤلف الأمريكي الناشئ أن يموت، ما دام الناشر والطابع لايعطي الحقوق لمؤلفات المؤلف الانجليزي الناضج، فصار كل من المؤلفين مهضوم الحق مهيض الجناح.

ثم كان تشريع عام ١٨٩١ وآخر عام ١٩٠٩ لحفظ حقوق التأليف، ولكن على شرط أن يكون الكتاب المكتوب باللغة الانجليزية مصنوعا في أمريكا. فالكتاب الانجليزي الذي لا يصنع في أمريكا لا تحترم حقوق تأليفه، إذ لا يكفل القانون الأمريكي لمؤلفه حقوقا. ولذلك فإن الكثير من الكتب الإنجليزية تصنع في أمريكا وبريطانيا في وقت واحد لتسجل في واشنطن ولندن معًا. ومعنى ذلك أن هناك قيودًا ثقيلة لحفظ حقوق الكتاب الانجليزي الذي يطبع في خارج أمريكا. هذه أمثلة مما يلقى خبير المكتبة من مشاكل تختلف باختلاف حقوق التأليف في مختلف الدول.

وتاريخ تسجيل حقوق التأليف يبين مدى حداثة مادة الكتاب، ولا يبين ذلك تاريخ الطبع، ويجب حين نفحص كتابا يهمنا أن تكون مادته مسايرة للتطور العلمى، أن تهتم بتاريخ تسجيله لا بتاريخ طبعه.

ويجب أن نفرق كذلك بين الطبعة المعادة للكتاب والطبعة المباينة لطبعاته السابقة، التي يضيف إليها المؤلف مادة جديدة أو رسوما أو توضيحات، أو أي جديد عما في الطباعات السابقة.

وهناك الطبعات المزينة بالرسوم، والطبعات الفاخرة، والطبعات المختصرة، والطبعات التي تحوي شروحًا. وكثيرًا ما يضطر المشتغل بالكتب أن يكون على شيء من الخبرة لتقدير هذه النواحي في الكتاب الذي يعرض له. ويجب كذلك، في مجال اختيار الكتب الجديدة، أو فحصها بوجه عام، أن نلم بالطباعة وألوانها، والورق وأنواعه، وما إلى ذلك. وقد ارتقت الطباعة في الغرب بحيث صارت وسيلة من وسائل تهذيب الذوق وإرضاء النزعات الجالية. وذلك بما استحدث من آلات وفن. ولم يعد يطلب في فن الطباعة أن يقدم الكتب للعاديين من الناس وحدهم، بل لطوائف أخرى مثل كتب ضعاف البصر والعميان.. إلخ.

وتتلخص مميزات طباعة الكتاب المنشود فيما ذكره "ماك ميرترى" في الكتاب الذهبي، حيث قال: "دعني أرى في ثنايا الغد الكتاب الموعود، على ألا يتجاوز حدود النزعة العملية، وأن يكون سهل التناول، يسير القراءة. وأن تكون مواد صناعته جيدة في غير إسراف، وأن يكشف جمال إخراجه عن يد صناع مهرة يتميزون بطابع الابداع والتنسيق".

جولة حول المعرفة

﴿.. فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾

"قرآن كريم"

لقد والتنا الأنباء أخيرًا بأن لجنة من أعلام الأدب في بريطانيا قد عهد إليها باختيار نيف وعشريم كتابا من عيون الكتب الأدبية الإنجليزية القديمة، وذلك تمهيدًا لعرضها على هيئة اليونسكو لتختار منها، ومن غيرها من آداب الأمم، لتترجم إلى لغات غير التي وضعت بها تلك المؤلفات.

ومهما يكن الأمر، فإن قرار اللجنة أثار دهشة وجدلا، حتى لقد سخر منه كثير من النقاد وطوائف متباينة من الشعب البريطاني، وهذا أمر طبيعي، ما دمنا بصدد كتب أدبية تقديرية، تختلف تبعا لتباين الامزجة.

والملاحظ على الكتب العظيمة بوجه عام أنها تتضمن هذه النزعات الانسانية الجمالية، حتى ولو كانت كتبا علمية. ومعنى ذلك هو أن هذه الكتب، والأدنى منها بوجه خاص، قلما يتفق الناس اتفاقا جماعيا عليها، وعلى قيمتها. وهكذا نجد أنه لن يجمع الكل على خير عشرة كتب، أو أفضل منه كتاب، من الكتب العظيمة في الأدب خاصة.

وإني إذ أختار طائفة من الكتب في كل لون من ألوان المعرفة إنما أفعل على هدى من سبقنى، أعني أنني أختار من قوائم أعدت بالفعل كما تتدارس بين المشتغلين بالمكتبات، لتكون مرشدًا لهم في تقديرهم واختيارهم، وتكون كذلك دافعا لهم على تملكها في مكتباتهم ليفيدوا بها الناس.

ومعنى ما أقول من ناحية أخرى أن خير المكتبة ليس هو بالقارئ الممتاز فحسب، وإنما في رجل مختص، والقراءة إحدى مميزاته البارزة، وفي الإلمام بعيون الكتب ما يعنيه ويهمه.

وليس الهام هنا هو ذكر طائفة من أمثال الكتب الرائعة في كل باب من أبواب المعرفة، كما يُمكن أن يفعل ذلك كل قارئ ممتاز مثقف. وإنما نحن نبغي أن نشير إلى الطرق الفنية للاختيار عن طريق الفهارس والمراجع الدورية، وغيرها. ولعل ذلك يكون باعثا لبعض الهمم على الابتداء بالغرب في هذا الفن فنعني بعيون الكتب العربية، قديمها وحديثها، ونبصر بقيمتها ونفتح العيون على أهميتها في كل حال.

أما عن الاختيار نفسه، فما هو غير محاولة، أو مثال موجز في كل فرع، قد لا يرضى عنه الخبير في ذلك الفرع، فيرمينا بالجهل، ولكننا لا نحاول ذلك إلا في نطاق المكتبة الشعبية العامة، الجديرة بأن تجمع شتيت المعارف لتجعل منها غذاء شعبيًا، بدلا من أن تبقى تلك المعارف قصرًا على أصحاب الأبراج العاجية من المختصين وأفذاذ العلماء.

ولما كان على الخبير بشئون المكتبات أن يختار الكتب ويزنها

بميزانه، فيجب أن يلم بألوان منها وأن يقف على أشهر الكتب في كل باب، وأعظم الترجمات لكل كاتب، وكل كتاب عظيم، وأعيان المترجمين وخصائص كل منهم.

ولو أننا تأملنا الأدب الروسي المترجم إلى الانجليزية أو الفرنسية لوجدنا أن لمؤلفات تشيكوف، القصصي الروسي الذائع الصيت في عالم القصة القصيرة، ترجمات متعددة، بعضها يتميز بالدقة وبعضها الآخر يمتاز بالسهولة في الأسلوب واللغة. كما أن الالمام بمشاهير المترجمين يوقفنا على حقائق باتت بديهية لطلاب الآداب والمشتغلين بها. فلو حدث أن التمسنا ترجمة لأعمال أدجار ألن بو بالفرنسية، أو لو وجد شخص يجيد كل من الفرنسية والإنجليزية وأراد الاطلاع على مؤلفات أدجار بو، لاستطعنا أن نقدم له على الفور هذه المؤلفات بالفرنسية. لأننا يجب أن تعلم قبل هذا وذاك، أن بودلير الشاعر الفرنسي الفذ، قد ترجم مؤلفات بو الامريكي بحيث صارت الترجمة أبدع من الأصل، وذلك لتشابه كل من بو، وبودلير، في كثير من الميول الشاذة، وأساليب الخيال، والحياة النفسية التي عاش كل منهما في ظلالها.

وهذا مثل فريد قلما يتكرر؛ لأن العبقرية فردية بحتة فمن النادر أن تتفق عبقريتان على هذا النحو مثل هذه الحقائق في الترجمة يجب أن تدرس ويلم بها المشتغل بالعمل المكتبي. والخبرة يعيون الكتب تتمثل في ألوان متعددة منها:

كتب السير

"إني أحيا للذين يحبونني ويحسنون معرفتي"

(ج ل. بلانكس)

ومن عيون كتب التراجم والسير وحياة الأفذاذ في التاريخ ما هو جدير بأن نلم به في هذا الباب. ومن الضروري لمن يريد أن يختار الكتب في هذا المجال أن يقف على تطور فن كتابة التراجم، واختلاف المدارس وتباين أساليب المعالجة تبعا لاختلاف الشخصية المترجم لها، ونواحي تميزها، ودواعي شهرتها، من الكتب التي عالجت دراسة فن كتابة التراجم:

1- Cook, Sir Edward: Literary Recreations
2- Maurois, Andre: aspects of Biography
3- Nicolson, Harold: The Development of English Biography

ويجب أن نقدر أهمية النواحي النفسية في دراسة عبقرية الفرد وإبداعه وطبعه الموروث، والصلة بين عمله وبين حياته النفسية.

ومن ناحية ثانية يحب أن نلم – إلى جانب العوامل الوراثية، بالنظريات الاجتماعية التي تبين التأثير المتبادل والتفاعل بين الفردية والحياة الاجتماعية في عصرها.

وثمة حقيقة يجب ألا نهملها وهي أنه في عصر ديمقراطي لا يقصر التراجم والسير على المتميزين الأعلام وحدهم، وإنما هو يلتمس السيرة الحسنة للمواطن الصالح. فالفرد العادي الممتاز هو موضوع جدير

بالدراسة والتحليل، ولعله يكون أقرب إلى نفوس جمهرة الناس من هؤلاء الأعلام. هكذا دخل عنصر جديد في عصرنا الحديث في موضوع التراجم ودراسية السير كما ظهر في ضروب أخرى من الأدب، كاتجاه الأدب الروسي والقصة الروسية التي تصور الحياة كما هي، وتصور عامة الناس وأحط الطبقات، ومثل تطور المسرحية التي لم تعد قاصرة على حياة العظماء والملوك الذين وصفهم شكسبير، وقصر عليهم مسرحياته، وأنها صارت تصور حياة الأفراد العاديين بفضل آباء المسرح الحديث، مثل إبسن وبرنارد شو ومن إليهما.

على أن ذلك لا يجب أن يغمط حق تراجم العباقرة والأبطال. فهي فضلا عما توحي به إلى النفس، وفضلا عما تكشفه لها من نواحي إنسانية فهي ذات أهمية تربوية من حيث أن حياة العظيم ما هي غير جزء من عظمته. فما سير العلماء غير جزء من الفن ..هذا فضلا عما توحى به السيرة نفسها إلى قلوب الناس وعقولهم مما يخصب الحياة ويثرى الشخصية.

ومن عالم التراجم الزاخر بعض من تراجم الأعلام لأنفسهم مثل "الاعترافات" لروسو، و"حياة جون ستبورات مل" بقله، و"حياة ايزادور دنكن" بقلها وهذا الكتاب الأخير لون طريف في دنيا التراجم، كتبته الراقصةالعالمية عن جياتها ويعتبر عملا أدبيا رائعا.

ومن شوامخ التراجم، وتراجم أغريقية رومانية، لبلوتارك و"سيرة شارلوت برونته" لكاسكيل، و"سيرة جلادستون" لمورلي، و"جون كيتس،

لكـولفن، و"بيـرون" لا مـوروا، و"الملكـة فيكتوريـا" لتراشـلي، و"سـيرة باستور" لريثيه فالرى رادو.

وتتميـز التـراجم تبعـا لعوامـل مختلفـة، منهـا شخصـية المتـرجم لـه، ومدى سهولة العثور على وثائق وحقائق عنه، ثـم يتوقف الأمر بعد هذا على الكاتب نفسه.

ولو قارنا كتاب "نابليون" لاميل لودفيج وهو الذي ترجم منذ فترة ليست بالبعيد إلى العربية، بدراسة ستيفان زفيج "لبلزاك" مثلا، لوجدنا أن الاختلاف في المنهج يرجع إلى شخصية وأسلوب كل من الكاتبين الذين ينحدران من جنس وأصل واحد، ولكن بينما يعني لودفبج بالتفاصيل التاريخية ويبالغ" نرى زفيج معنى بالناحية النفسية، يجد المدخل الموصل إلى بواطن الشخصية وحياتها ونزعاتها.

والخلاصة، إن الترجمة أصبحت فنا ولونا مستقلا من ألوان الأدب وفنونه، وصارت لها أصول وقواعد، ولكن لا يجب أن تقف معرفتنا عند مجرد دراسة نظرية للأصول والقواعد، بل يجب أن نلتمس في كتابات الافذاذ وأعلام الكتاب للسير مثلا يُمكن أن يحتذى ونستخلص منه نحن الأصول والقواعد.

فلكى تكون لنا خبرة في هذا الباب وما يمثله من الدراسات الأدبية النفسية والاجتماعية يجب أن نلم بعيون الكتب والتراجم التي كتبت فعلا، دون أن يغض ذلك من شأن كتب النقد والدراسات لفن كتابة السير.

في آفاق الآداب

"الأدب لا ينسخ صورة الحياة وإنما هو يحلل غاياتها"

"أوسكار وايلد"

نعني بالأدب خصائص جمالية في الأسلوب بغض النظر عن الموضوع، وعلى هذا النحو يمتد الأدب بخصائص الجمالية إلى أي أفق آخر من العلوم والتاريخ والفلسفة، ما دام المهم في الموضوع هو الخصائص الجمالية، ذات الطابع الانساني، لا الموضوع نفسه.

وقد رأينا أن كتابة السير باتت لونا يكاد أن يستقل عن الأدب البحث. وفي الواقع أن ألوان هذا الأدب تميزت في الغرب وأصبح لها دراسات مستفيضة بمراجعها ودراساتها. وقد صار هذا الأدب البحث ينقسم إلى الشعر والقصص والمقالة والتمثيلية، تبعا للشكل والمنهج الذي يتخذه كل موضوع من هذه الموضوعات تميزًا له عما عداه.

ولما كانت الكتب الأدبية، بوجه عام، ترجع في نقدها إلى معايير تقديرية، أي ذوقية، غير مستقرة مطمئنة إلى دعائم ثابتة كما هو الحال في العلوم الطبيعية مثلا، فإن من الصعب الحكم المطلق على كتب معينة بأنها خير الكتب. والحق أن مشكلة الاختيار في هذا المضمار شاقة تبعًا لتباين الأمزجة واختلاف الذوق، ولذا فسوف نوجز القول ونحدده

مكتفين بالاشارة إلى الفهارس والقوائم، ما اتسع المجال إلى ذلك.

ولصعوبة إمكان التقدير المطلق في قيمة هذه الكتب وأمثالها، وخاصة في فنون الأدب الأرستقراطي، كالشعر والعميق من الألوان الأخرى، سنقتصر على ذكر المراجع في هذا الباب. وكثيرًا ما يكون لشهرة الكاتب والكتاب الأثر الفعال في إقبال الناس عليه.

ولاشك أن الجوائز الأدبية التي تمنح، تجعل للكتاب مكانته مما يهيئ له الانتشار والتقدير. وهذه الجوائز لدينا منها جائزة فؤاد الأول في العلوم والآداب والقانون، وجوائز هيئات ثقافية أخرى مثل مجمع فؤاد الأول للغة العربية، ووزارة المعارف العمومية، وغيرها من الهيئات.

وفي الغرب نجد أن مثل هذه الجوائز أقدم عهدًا مما لدينا، كما أنها أوضح في تحديد مميزات الكتاب الذي يُمكن أن يقدم لفوز بالجائزة. فجائزة نوبل تمنح سنويا منذ عام ١٩١٠ في الآداب والعلوم، مشترطة أن يتوفر في المؤلف أو البحث، النزوع إلى المثالية والتمسك بالمثل العليا للسلام والإنسانية. فلم تكن رواية (الأم) لبيرك باك، الكاتبة الأمريكية ومؤلفة (الأرض الطيبة)، خير رواية ألفت، حينما منحت هذه الجائزة في إحدى السنوات السابقة للحرب العالمية الأخيرة. ولكنها كانت أظهر ألوان القصص نزوعا إلى السلام والمثالية، بما صورت من بؤس الحياة وشقاء وفقر الأحياء في البلاد الصينية، التي كانت جيوش اليابان تجتاح أراضيها في ذلك الوقت. وقد قرأت في الصحف أخيرًا أن "موريتسديكر" المؤلف المسرحي الهولندي، قد ألف تمثيلية "ليس للعالم

داع للانتظار" وموضوعها عن الشرور التي يُمكن تنجم عن استخدام القوى الذرية في سحق الحياة وإبادة الأحياء. ومثل هذه القصة قد لاقت من النجاح فوق ما انتظره صاحبها وفوق ما قدره القائمون بأمر المسرح، لأنها صادفت الوقت الذي شعر فيه الناس بما يتهددهم من ويل وشرور، إن إذاعة الأنباء مؤكدة وصول روسيا إلى تحطيم الذرة.

ولا يستبعد مطلقا أن تنال مثل هذه القصة جائزة نوبل التي تشترط نوع العمل الأدبي إلى غايات إنسانية إلى جانب توفر الشروط الفنية.

وتمنح جائزة "بوانزر" منذ عام ١٩١٧، لخير المؤلفات تمثيلا للروح الأمريكي في آفاق الأدب كالشعر والتراجم والتمثيلية.

وهناك جائزة (هوتورندن) التي تمنح سنويا مُنذ عام ١٩٠٩ للكاتب الانجليزي الذي يكتب خير مؤلف أدبي، على أن يكون دون الأربعين، وكذلك ترجع جائزة "جيمس ثمث بلاك" إلى تاريخ نفس الجائزة السابقة، وهي تمنح لخير عمل أدبي ظهر في باب منه، فإذا كنا بإزاء المقالة فلنعرف مكانة مونتني في أدب المقالة.

وكيف أنه دعم أسسها بأن أعطاها الطابع الشخصي وأشاع فيها الجو الصريح الذي يسبغ عليها لونا من الألفة والاخلاص، بحيث جعل نفسه موضوع كتابه "المقالات" ذلك الأثر الإنساني الرائع الذي أخرج المقالة من أسلوب اصطناع الوقار والنصح والإرشاد مما لم يعد ملائما لروح العصر.

وكثيرًا ما يعجب القارئ الحديث عن يتخذ من أخطائه ونفسه

موضوعًا للسخرية، فتلك هي الصورة السائغة التي يستطيع الناس أن يروا أخطاءهم في ضوئها، وقد يضحكون من المؤلف وهم يشعرون أنهم قد اندمجوا معه في مجالي نفسه وشاركوه مشاركة وجدانية فما يسوق عن شخصه فيرون فيه نفوسهم، فإن ضحكوا أو سخروا فإنما يسخرون منها.

فالمصارحة والمشاركة الوجدانية من الأمور الأساسية في الحكم على المقالة الحديثة التي تختلف فيها النزعات والاتجاهات. فالبعض يصطنع منهجًا نفسيا، يسجل فيه هواجس النفس. والبعض تغلب عليه الأفكار الفلسفية أو الدينية أو الفنية مثل "جماليل براد فورد" و"ارنست نيومان" و"رسكن" و"هكسلى" وغيرهم ممن أقاموا صرح المقالة من مختلف وجوه الحياة وصورها، من رحلات إلى رياضة نساق الجبال، إلى عمل الحديقة أو عمل المنزل" إلى موائد الغذاء، أو مجالس العائلة، إلى ملايين الصور التي تزخر بها الحياة.

وللمقالة فهارس مثل تلك التي يرجع لها في آخر هذا الكتاب إنجلترا كل عام، ولكنها لا تقصر دخول المسابقة على سن معين. كما نجد عشرات الجوائز في أنحاء العالم الأوروبي وغيره.

ومن الضروري، لاختيار الكتب الأدبية الاهتداء بالفهارس المتعلقة، إما بالأدب عامة، أو بلون خاص منه. إلى جانب كتب المراجع في الأدب وفنون وعيون كتب تاريخ الأدب، ونظريات النقد. ومن هذه المراجع مثل ما أشرنا إليه في آخر هذا الكتاب تحت عنوان مراجع أدبية.

كما يجب أن نوفر مثل هذه الفهارس والمراجع في كل فرع من الأدب، من تمثيلية إلى شعر إلى مقالة فتدل عليها وعلى اسماء مؤلفيها أو تدل على انتاج مؤلفين بالذات أو غير ذلك من وسائل الاستعلام، وذلك كله للاسترشاد بهذه الكتب وأمثالها في الاختيار والاهتداء.

وإلى جانب هذا يجب الالمام بأشهر الكتب الأصيلة في كل مجال.

شوامخ التاريخ

"ما الحياة غير تاريخ"

شكسبير

إذا كنا بصدد بحث فترة أو حادثة معينة في التاريخ فيجب أن نذكر ما ذكره "تيرجارت" في كتابة (نظرية التاريخ) ص١٧ حيث قال "إن التاريخ يسجل أحداثًا له بداية ووسط ونهاية، وأول ما يلفت نظر المؤرخ هو الحدث، ولكن المشكلة التي يواجهها كل مؤلف هي، كيفية الربط والتوحيد والتجانس بين عناصر غير متجانسة"..

ومن ثم، فالحادث يختلف من حيث تأثيره العقلي وإثارته لمتباين التصورات تبعا لتباين الأشخاص، كما يذكر ذلك جورج سانتيانا في كتابة "الاحساس بالجمال) ص ١٤١، ١٤٢.

وعليه، فإن استحساننا لكتاب معين في التاريخ عن فترة معينة، لا يدل على خلوه من الأخطاء ما دام الأمر مُختلفًا باختلاف المؤرخين، ولذا لزم وجود الخبرة فمن يختار مثل هذه الكتب، مع الإلمام بها، وامتلاكه لقدرمن المعرفة يستطيع على ضوئه اختيار كتاب من بين عشرات الكتب.

وتختلف مذاهب المؤرخين ومناهج مدارسهم. فهناك المدرسة

القديسة التي يمثلها برسكوت، وماكولى، وموتلى. وهم الذين غلب عليهم النزوغ الأدبي والمشاعر الشخصية في مؤلفاتهم وأما المدرسة الحديثة، فهي تحاول أن تكون موضوعية، وأن تتجرد من تلك المشاعر الذاتية وتحاول الأخذ بالنظريات الاجتماعية التاريخية التي تلتمس استخلاص نتائج الحوادث لتبرز نوعا معينًا من الحضارة أو طابعا خاصا من المدينة. ويمثل هذا الاتجاه الاخير في أبعد صوره (ويلز) في كتابه "موجز التاريخ" فهو يؤلف تأليفا ممتازًا يتلاءم مع شعبية القارئ المعاصر ويصور الأحداث التي مهدت للعصر الحاضر.

ومن الكُتب الممتازة في التاريخ، (برستيد) في تاريخ مصر القديمة، و(هنرى آدامز) في تاريخ الولايات المتحدة، و(توماس كارليل) عن الثورة الفرنسية، و(جيبون) و(بيرس) عن الامبراطورية الرومانية، و(ميشيليه) في تاريخ فرنسا، و(ماكولي) في تاريخ انجلترا، و(ميشو) عن الحروب الصلبية. ومن الكتب العامة التي تتجه إلى فلسفة الحضارات، انحلال الحضارة الغربية (نشبنجلر)، والحرية مقابل النظام (لرسل)، وأصول فرنسا المعاصرة (لنين)، ودراسة التاريخ (لتوينبى).

روائع العلوم

"إن في حقائق العلوم ما هو أقوى إثارة للخيال من روائع الأدب"

"هالدان"

لقد تطور العالم القديم بأساطيره وفلسفته، والعالم الوسيط الديني المتعصب الذي كان يرى كل شيء خلال الدين وبمنظار الإيمان وأصبح العالم اليوم يدين بالواقع ودراسته، التي تأخذ نفسها بالمنهج الوضعي القائم على الملاحظة والتجربة والاستقراء لتكون النتائج قائمة على الوقائع.

ويُمكننا أن نلمح الشوط السريع الذي قطعه العلم في ميدان البحثفي السبعين سنة الاخيره، فقد بلغ من سرعته أن ما قطعه في تلك الفتره يفوق جميع ما انتهت إليه الإنسانية من درس وبحث مدى آلاف السنين السابقة التي تؤرخ حضارة الجنس البشري.

ولو أننا لم نقتنع بهذا الكلام ومدى ما فيه من صدق وحاولنا الوقوف على ذلك التقدم على نحو ملموس، فقارنا بين ما تجده عن الذرة أو عن الالكترونات أو الراديو في دائرة المعارف البريطانية في طبعة سنة ١٩١٠، لعجبنا لمدى ضآلة معارفنا لذلك العهد عن هذه الموضوعات التي صار ينشر ويذاع عنها عشرات البحوث كل شهر

لتضيف الجديد إلى ما نعرف.

وإذا كان (فهرست البحوث العلمية) الذي أخرجته الجمعية العلمية الملكية بلندن مسجلا كل ما أجرى من بحوث علمية بين عامي ١٨٠٠ و١٩٠٠، قد شغل تسعة عشر مجلدًا، فإننا نجد أن البحوث والمطبوعات العلمية التي أجريت منذ بزوغ القرن العشرين حتى اليوم تحتاج إلى مائتي مجلد، وهي لن تشغل من فروع العلوم إلا سبعة عشر فرعا فقط، لو قدر لها أن تخرج في هذا الحجم الذي يعتبر على ضخامته ضئيلا إذا كان عليه أن يشمل الابحاث العلمية جميعا. وإذا عرفنا أن دورية تعنى بذكر ملخصات ما نر في علم الاحياء مثلا، ترجع إلى ما يقرب من خمسة آلاف دورية مطبوعة كما تستوعب حدًا معقولًا من البحوث التي تنشر عن علم الاحياء، لكيما نلخصها ونذيع نتائجها على الباحثين والدارسين في أنحاء الأرض، لأمكننا أن نتصور مدى هذا التقدم ومدى الجهود التي يجب أن تبذل كما نساير هذا الركب الزاحف قدما نحو كشف الحقائق، وهو ركب لن يقف في أكبر الظن، إلا بانتهاء الإنسان نفسه.

ولسنا إذ نعرض للعلوم وأشهر الكتب فيها بصدد كتب للخاصة، لأننا افترضنا أننا نعالج هذا الموضوع على نحو أعم وأشمل. فنحن نختار الكتب للمكتبة العامة في هذا الفصل.

ولسنا نذيع جديدًا إذا ما ذكرنا أن الكتب العلمية تختلف في طريقة عرضها للموضوعات، فمنها المدرسي، ومنها الجامعي، ومنها العام،

ومنها الشعبي، ومنها ما يمتاز بالسبق وإلقاء الضوء على حقيقة ما زالت في طور الكشف. كما يجب أن تقدر على ضوء مؤهلات المؤلف ومباحثه السابقة ودراسته التي أهلته لكتابة البحث. ولنتذكر أهمية حداثة هذه الكتب لأن القديم لا قيمة له إلا في حالات خاصة. كما لا يفوتنا أن الكتب العلمية تكون أغلى ثمنا عن غيرها ولذا يجب التدقيق فيها قبل شرائها.

وليس هنا مجال للإشارة إلى أهمية الفهارس الخاصة بالعلوم والابحاث العلمية بالتفصيل ولكن يجب أن نذكر "فهرس الابحاث العلمية" الذي نشر بواسطة الجمعية الملكية بلندن وقد ذكر الابحاث التي تمت بين عامي ١٨٠٠ و١٩٠٠، "والفهرس الدولي للأبحاث العلمية" الذي يسجل البحوث التي أجريت بين عامي ١٩٠٢ و١٩٢١، والذي نشرته الجمعية الملكية بلندن كذلك.

وقد نشر مجلس البحوث القومي بواشنطن فهرس الكتب التي نشرت في العلوم والفنون العملية والطب حتى عهد قريب.

وفي كل فرع من فروع المعرفة والفنون توجد فهارس الكتب الجديدة يُمكن الرجوع لها في "دليل كتب المراجع" لمادج.

ومن أمثلة الكتب العلمية التي تصلح لقراءة المثقفين بوجه عام، دراسات عن موضوعات العلوم الطبيعية "لدراهام"، والحياة في دنيا الحشرات "لفلبر"، و: النحل "لجوليان هكسلي"، و: الحياة في الغابة "لثورو"، و: أصل الأنواع "لدارون" وله أيضا: نظام الطبيعة، و: عالم

الضوء "لبراج"، و: حقيقة طبيعة الحياة "لادينتجون"، و"مالدان" له: العلم والحياة الإنسانية، و: الكون من حولنا: "لجينجز"، والنسبية "لبرتراندراسل"، و"لسيدجويك": مختصر تاريخ العلوم، و"لتيرنر": رحلة في المكان، و"لوياز" وآخرين: معرفة الحياة، و"هوايتهيد" له: العلم والعالم الحديث، و"لاميل ميرسون" القيمة التوضيحية للعلم، و"لكلود برنار" مقدمة لدراسة الطب التجريبي.

ومن الكتب التي يقبل عليها الناس سلاسل- "أبلنون سنشري" عن العلوم، وسلسلة كتب "اليوم والغد" التي يصدرها "دانون" وكلها أمريكية.

العلوم الاجتماعية

خلت أني في الغاب أصبحت وحدي   فإذا الناس كلهم في ثيابي

"إِيليا أبو ماضي"

يقصد بالعلوم الاجتماعية دراسة الظاهرات الانسانية في المجتمعات، فهي شبيهة بذلك الذي أسماه ابن خلدون في مقدمته بعلم العمران، وتشمل الظاهرات الاقتصادية والدينية والتربوية واللغوية والسياسية والقضائية والجمالية، أدبية كانت أو فنية، وكل ما يجري من حياة المجتمعات، متطورة ومستقرة. غير أن النظرة الأمريكية لا تكتفي بقصر هذا الباب على الناحية النظرية، بل تضيف إليها الاصلاح الاجتماعي، والخدمات الاجتماعية، والمؤسسات التي تعنى بعلاج المشاكل الاجتماعية بحيث تحتل هذه التطبيقات العملية مكانا أوسع من ذلك الذي يشمل الدراسة النظرية البحتة.

وإذا ألقينا نظرة على تقسيم ديوى لوجدنا أن علم الاجتماع علم لا يشمل غير جزء من ضمن أجزاء العلوم الاجتماعية مثل الاحصاء، والعلوم السياسية، والاقتصادية، والقانون، والإدارة الحكومية والجيش، والمؤسسات الاصلاحية، والتعليم، والتجارة والأعمال، ووسائل المواصلات، والأزياء، والعادات والتقاليد العامة. وإذن، فمن المبالغة،

ونحن نتتبع هذا التقسيم في حديثنا عن المعرفة، أن نقصر القول على علم الاجتماع في حديثنا عن المعرفة، أن نقصر القول على علم الاجتماع العام، كما أننا لا نستطيع أن نتكلم عن هذه الثروة الإنسانية الضخمة من العلوم والفنون وأشهر كتبها في هذا الحيز المحدود.

وقد لوحظ الإقبال عن هذه الدراسات إبان الأزمة الاقتصادية الأمريكية، فهبطت نسبة قراءة القصص في الوقت الذي ازداد فيه الإقبال على هذه الدراسات الاجتماعية وفروعها وخاصة المباحث الاقتصادية، فصارت منذ ذاك التاريخ تحتل مكانة ممتازة في عالم القراءة. وهذا الاتجاه يفسر مدى عناية هذه الدراسات في أمريكا بالواقع والمشاكل الحيوية الموجودة التي تحاول بحثها بحثا موضوعيا واقعيا قائما على الملاحظات والأسئلة والإحصائات، وما إلى ذلك من أساليب منهج البحث الاجتماعي للظاهرات والمشاكل. ويعتبر الاصلاح الاجتماعي وألوانه، مثل الخدمات الاجتماعية، ضمن ما يدخل في هذا المجال. ولما كان من الملاحظ في بلادنا ارتفاع نسبة القراءة نسبيا وإزدياد الإقبال والعناية بمثل هذه الدراسات، فيجب أن نمهد السبيل لإرضاء هذه الميول الاجتماعية، ليلمس الناس مشاكلهم على أساس علمي بما نقدم من كتب.

وليس لنا في هذه النبذة أن نتحدث عن أشهر الكتب الفلسفية الاجتماعية، مثل مقدمة ابن خلدونه، أو الفلسفة الوضعية لاوجسط كنط، أو كتب أميل دوركايم، وليفي برول، من أعلام المدرسة الفرنسية

الاجتماعية. ولا من مهدوا لها، مثل مونتسكيو في كتاب روح القوانين، وتين في دراسته الأدبية التاريخية. ولا من تأثروا بها مثلا في تفسير الأدب والفن، مثل جيوه ولالو.

وكذلك ليس لنا أن نقف عند كتب أخرى مهدت لدراسة لمجتمعات المثالية مثل جمهورية أفلاطون، أو المدينة الفاضلة للفارابي أو المدن الخيالية الأخرى التي يُمكن أن نلتمسها عند كامبا نيلا وتوماس مور. كما لا يتسع المجال لأن نقف عند مؤلفات سبنسر، وآدم سميث، أو عند نظريات علم النفس الاجتماعي التي مهد لها تارد، أو عند نظريات أخرى بالغة في أصالتها في مثل كتاب "فيلفربدباريتو" المسمى (العقل والمجتمع).

لا نريد أن نقف عند هذه الكتب، التي أصبحت كلاسيكية والتي تكفي الإشارة إليها، نظرًا لاختلاف المدارس ووجهات النظر. ويمكن قراءة كتب تمهيدية حتى لا يضل القارئ المبتدئ في ساحة المكتبة الشعبية، وهذه الكتب مثل كتاب ايسترورد "الاجتماع التطبيقي" وجينزبرج علم الاجتماع، وباربز "تاريخ واتجاهات العلوم الاجتماعية"، ردافيز "التيارات الاجتماعية المعاصرة" وماك ايفر "المجتمع"، ولیند "تطور المدينة" ، وقد ظهر كتاب سنة ١٩٤٩ لجونس اسمه "الأسس الاجتماعية الرئيسية"

على أننا لا يُمكن نا إغفال أهمية كتب الدكتور علي عبد الواحد التي نشرت في سلسلة الجمعية الفلسفية والتي تعطي فكرة عميقة، في

غير توسع، عن المشاكل التي عالجها، مما يجعلها ذات أهمية خاصة في هذا المضمار وهي "العائلة والمجتمع" و"المسؤولية والجزاء" و"اللغة والمجتمع"، وهي كتب فريدة من نوعها في العربية.

أريد أذكر أهمية ما تنشره الهيئات من النشرات والرسائل الموجزة، والإحصاءات، والتقارير، وحتى نشرات الإعلانات، التي قد لا تخلو من فائدة في بعض الأحيان. وهذه كلها تظهرنا على أحدث ما انتهت إليه هيئات البحث والدراسة والإصلاح من تطور في علاج المشاكل الاجتماعية ودراستها.

وهذه المؤسسات مثل مؤسسة كارنيجي بواشنطن، ولها ولمطبوعاتها مكانة ممتازة، كما أن مطبوعات منحة كارنيجى للسلام العالمي جعلت المكتبة الاجتماعية زاخرة بأدق ما يحث في هذا الموضوع منذ سنة ١٩١٠ حتى الآن. وثل ذلك أيضا عن نشرات مؤسسة راسيل سبج في ميدان الخدمات الاجتماعية التي تصدر مُنذ سنة ١٩٠٧ حتى الآن. وقله كذلك على نشرات كل من الجمعية الأمريكية للدراسات الاجتماعية ونشرات مجلس مباحث الدراسات الاجتماعية، وغيرها من الهيئات الاجتماعية التي تقترن دائما بالإصلاح مثل مؤسسات الصحة العامة وعلاج مشاكلها، ومشاكل الطفولة والتشرد، ومشاكل الأبناء غير الشرعيين، ومشاكل الاجتماع الريفي، وتعنى به جمعية الاجتماع الريفي بجامعة ولاية كارولينا الشمالية بمدينة دالي بأمريكا ولتقرير ومنشورات البيت الأبيض عن المشاكل الاجتماعية شأن كبير في هذا المجال. كما

يُمكن أن مجد مثل هذه النشرات عند الهيئات المماثلة في إنجلترا والدنيمارك والسويد والنرويج. ولمطبوعات هيئة الأمم أهميتها في هذا المجال.

وفي المكتبة العامة يحب أن نحرص على أن نقتني مثل هذه النشرات وتعرضها ونبين أهميتها، وخاصة ما كان منها مقتضيا مبسطا، ويمكن أن تتأكد الإفادة منها بربطها برامج المحاضرات والنشاط الثقافي الاجتماعي الذي تقوم به المكتبة العامة لعلاج وعرض مشاكل المجتمع.

ومن مراجع وفهارس هذا الباب التي تعين على تحديد قيمة الكتب، دائرة معارف العلوم الاجتماعية التي نشرها ماكملان (١٩٣٠ – ١٩٣٦)، وفهرس لندن للعلوم الاجتماعية الذي نشرته مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية (١٩١٣– ١٩٣٤) وكتاب الفهارس في الفصل الرابع لفان هاوزن (انظر مراجع هذا الكتاب بآخره). وكل من الفهرس الجامع لويلسون، وقائمة كتب الولايات المتحدة التي تصدر كل ثلاثة أشهر عن مكتبة الكونجرس. وهذين الأخيرين فهرسين دوريين يعينان في معرفة الكتب الجديدة في هذه الموضوعات وغيرها، والأخير ينقد الكتب الهامة نقدًا معتدلًا.

الديانات والفلسفة

"إننا نتفلسف كما نتنفس"

أميل ميرسون

"لقد فقدت إيماني بالله منذ سنين، ولكن هاهى أجراس عيد الميلاد تدق.. إنها تحمل شعاعا حبيبا من صباي.. هيا لنحيي العيد"

جيته على لسان فاوست

يحاول كل من الدين والفلسفة أن يعرض لمشاكل ما بعد الطبيعة أي عالم الغيب، وعالم الكون والفساد أي عالم الشهادة وفي موضوع عالم الغيب تدرس مشاكل مثل مشكلة الله ووجوده ومشكلة الروح وخلودها. وبينما تتخذ الفلسفة العقل والمنطق سبيلها إلى معرفة الحقيقة عارية، يلتمس الدين من الشعور وسيلة إلى الإيمان والتسليم المطلق بتعاليم الدين. فالفلسفة محاولة إنسانية عقلية جريئة على المتوارث من الإيمان، وهي كفاح وجهاد. في حين أن الدين استسلام ورضى نفسي عن حقائق يرى من الخير أن يؤمن بها ليكافح الفرد والناس غير هذا السبيل الذي ما انتهى الإنسان فيه، بالعقل، إلى حقيقة ملموسة مرسومة.

وفي مجال الدين نجد الكتب المقدسة أعلامًا في هذا المجال. فالقرآن اعتبر آية إعجاز ببلاغته وتشريعه وحكمته، والكتاب المقدس

بتحليفه الشاعرى وبصورة الخصبة، وبما حوى من رواسب الحكمة التي رسبت على الدهور، في نهر الحياة، كانت له مكانته على رأس الكتب الموحية التي ألهمت الشعراء والفنانين في الغرب.

وقد كانت، وما زالت هذه الكتب وأمثالها من ديانات اليونان وأساطيرهم من أبعد الكتب تأثيرًا وإيحاء. فهي تترك المجال واسعًا للخيال والفكر لتأويل الصور والمعاني. وكتب الديانات المقدسة هي بيادر حكمة الشرق، وصورة من أحلام وديانة المقدسة، وصحراته اللانهائية التي تلهم بالوحدانية، كما يقول لامرتين في بعض شعره، الذي اقتبسه الكونت (كارادى فو) في مقدمة كتاب له عن الإسلام. ومهما تمكن في عصر يلح بالمادة والحضارة المادية، فلاشك أن مثل هذه الكتب ضرورية للإنسانية، لأنها تخاطب فيها عاطفة طبيعية، كما هي ترسم للخيال أجمل الصور. بل إننا لأشد حاجة إلى مثل هذه الكتب في العصر الذي نحيا فيه. فهي تراث إنساني خالد تستروح فيه النفس إذ تلقى ألوانا من الصفاء الروحي الذي يذهب بأكدار الحياة المعقدة، والقيم المصطنعة، والأضواء التي تتعب البصر وتجعل المرء يغفو عن هذا كله، في ضباب مقدس لتستيقظ روحه في هذا الجو الزاخر بمعان وصور في قليل من التصريح وكثير من التسليح.

واليوم نجد الاقبال على هذا اللون من الثقافة واضحا في الكتب التي لم يقصد من ورائها التعليم الديني وخدمة أغراضه المباشرة. وغالبا ما تلقى الكتب التي يكتبها كتاب غير رجال الدين رواجا وإقبالا، وذلك

لما فيها من ربط بين الماضي والحاضر، وإظهاره في ضوء جديد يجعله أقرب إلى نفوس الأحياء وقلوبهم.

يقول الدكتور طه حسين بك في مقدمة كتابه "على هامش السيرة" في جزئه الأول ".. وإنك لتلمس هؤلاء الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم. إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق، يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة، ومن اللذة والمتاع ما يغريهم به ويرغبهم فيه، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة وفهمه اعسر وتذوقه أشد عسرًا.. وأين القارئ. الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطاولة والاخبار التي يلتوي بها الاستطراد وتجوز لغتها القديمة الغريبة على سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذي لا يكلف مشقه ولا عناء".

"ذلك إلى أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو مستقرأ ثابتا لا يتغير ولا يتبدل ولا يلتمس الناس لذته إلا في نصوصه يقرأونها ويعيدون قراءتها ويستظهرونها ويمعنون في استظهارها. إنما لأدب الخصب حقا هو الذي يلذك حين تقرؤه لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك ولأنه يوحى إليك بما ليس فيه ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ويعيرك من خصبه خصبا ومن ثروته ثروة ومن قوته قوة. وينطقك بما أنطق القدماء ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك أو يصور قلبك في صورته وإذا أنت تميده على الناس فتلقيه إليهم في شكل جديد يتلائم

حياتهم التي يحيونها وعواطفهم التي تثور في قلوبهم وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم".

وهكذا صارت أكثر الكتب انتشارًا في هذا المجال هي الكتب التي تربط حقائق الماضي بالحياة الحاضرة وما يضطرب فيها من مشاعر وأحاسيس ومشاكل في ضوء العلوم والمعارف والأساليب المعاصرة، وهذا يعلل شدة الإقبال على كتب التراجم التي أذاعها مشاهير الكتاب في مصر عن أبطال الإسلام وأعلامه مثل تراجم العقاد وكتب هيكل (وعلى هامش السيرة) لطه حسين، وخاصة في بدء ظهور مثل هذا اللون الجديد في الأدب العربي المعاصر.

وكتب المراجع العربية عن الإسلام عديدة متنوعة يحسن الرجوع فيها لخبير، وليس لها فهارس مطبوعة تسهل لنا مهمة اختيار بعض منها كما نجد ذلك في المراجع الأوروبية حيث نجد (دائرة المعارف الإسلامية) وغيرها، كما نجد دوائر معارف أخرى عن الأديان مثل (دائرة معارف الدين والأخلاق)، (دائرة المعارف الكاثوليكية) و(دائرة المعارف اليهودية).

ومن مصادر المتعة والمعرفة في هذا الموضوع ما كتب عن أديان الشرق القديم كديانات بوذاو وكونفشيوس وزرادشت، ومن مصادر المتعة والمعرفة كذلك الوقوف على الأديان البدائية وتقاليدها وأساطيرها في كتاب مثل (الغصن الذهبي) لفريزر.

وتعد الفلسفة سجلا لتفكير البشر ومدى ما انتهوا إليه بالعقل عن

الحياة والموت، والخير والشر، والجمال والقبح، والصواب والخطأ. فهي تتضمن ما بعد الطبيعة، وعلم الأخلاق وعلم الجمال، وعلم المنطق وأن اتجه الرأى الحديث إلى فصل كل ما ليس متعلقا بما بعد الطبيعة عن الفلسفة.

والفلسفة ليست شعبية يسيرة الفهم سائغة لكل عقل فيجب أن نختارالسهل الواضح العام بقدر الإمكان من الكتب التي تكتب في هذا الموضوع. ولذلك كانت السلاسل التي يصدرها بعض الناشرين في الغرب، في هذا الأفق العام الذي ينمو ويتجه إلى التبسيط والتوضيح، أكثر شيوعًا من الكتب الأصيلة العميقة مثل كتب (سببنوزا) و(أرسطو) و(كانط) وبما يفيد في هذا المجال قصص الفلسفة التي تعرض لتاريخها عرضا عاما أو التي تعرف بها. ومن هذه الكتب السائغة كذلك تلك التي تربط المشاكل الفلسفية بالحياة الجارية ومشاكلها.

وإذا اعتبرنا علم النفس تابعا للفلسفة، ولو في مجال التقسيم المكتبي لفروع المعرفة لصرنا أمام أوضح لون من ألوان الفلسفة شيوعًا وانتشارا، وخاصة ما كان منه في سلاسل قصيرة تدرس المشاكل الحيوية أو العملية مثل مشاكل السعادة والنجاح والتخلص من الألم وكيفية إدارة العمل، وتنظيم الحياة، والتغلب على الخوف والوهم وغيرها بما يدرس العوامل النفسية في الحياة الاقتصادية والعائلية والاجتماعية والمهنية، وما إلى ذلك.

وقد سبقت الإشارة إلى السلاسل الفلسفية، التي هي شبيهة بما

أصدرته الجمعية الفلسفية المصرية، وما كان لها من أثر في الإقبال على هذا اللون من المعرفة بما تحاوله من تبسيط وإيضاح للحقائق والنظريات مع عرضها لها في حجم معقول وبسعر معتدل.

ومن أمثال هذه السلاسل "السلسلة الفلسفية" التي هي جزء من سلاسل "مكتبة الطلبة الحديثة" التي يصدرها "سكرتير" الناشر الأمريكي، وكذلك "المكتبة الفلسفية" التي يصدرها الناشر الشهير "ما كملان" وهي أكثر توسعا من الأولى. ويمكن الرجوع للفهارس العامة للوقوف على الجديد مما أذيع في الأبحاث الفلسفية، كما يُمكن الرجوع إلى (قاموس لا لأنه) الفلسفي بالفرنسية للاهتداء إلى مراجع في الموضوعات الفلسفية، كما يُمكن الاستعانة به في التعريفات وكذلك (بقاموس بولدوين) للفلسفة وعلم النفس، وكذلك بقاموس "وارن" في علم النفس.

ومن المراجع التي ترشد عن كتب في علم النفس قائمة (شو) الخاصة بكتب الجامعات، ويمكن أيضا الرجوع إلى كتاب (المراجع) لمان هاوزنووالتر، في الفصل السادس

ومن الهام أن نذكر الدورية التي تعنى بالملخصات في هذا الموضوع وهي مجلة "مختصرات علم النفس" وهي دورية شهرية تشير إلى الموضوعات الجديدة التي نشرت في مجال هذا الفن سواء ما نشر في المجلات أو الكتب، ويصدرها اتحاد علم النفس الامريكي. وفي مصر نجد "مجلة علم النفس" التي تصدر عن جماعة علم النفس التكاملي، وتنشرها دار المعارف، وهي تشبه المجلات المعتمدة في الغرب من

حيث إشارتها إلى ما يصدر في هذا الموضوع، ولا يفوتنا أن نشير إلى ما سجله "السجل الثقافي" الذي نشرته إدارة التسجيل الثقافي بوزارة المعارف من كتب ظهرت في مصر في هذا العلم وفي غيره في عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨ وقائمة المعهد الفرنسي عن الكتب التي صدرت بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٤.

ومن الكتب القيمة الشيقة، في الغرب في موضوعي الدين والفلسفة ما هو حقيقي بأن تمتلكه المكتبة. ومثل ذلك والأخلاق إلى نيقوماخوس" لارسطو وقد ترجمة لطفي السيد باشا إلى العربية. و"لماتيو أرنولد" الأدب والرأي الملزم، واعترافات القديس أوغسطين، وتطور المعرفة "لبيكون"، والطب الروحي "لتوماس براون"، و"لاميرسون" مسلك الحياة، و"لابيكتاتوس" مقالات أخلاقية والمقال عن المنهج "لديكارت" وللأخير ترجمة عربية بقلم الأستاذ محمود الخضيري. و"للقديس فرانسس" زهور القديس فرانسس الغضة، و"وليم جيمس" له المتباين من التجارب الدينية، ومقال عن الحرية "لسنبوارت مل" و"نينشه" له هكذا قال زرادشت وله ترجمة عربية بقلم المرحوم فيلكس فارس. والأفكار "لباسكال" ومحاورات أفلاطون مترجم بعضها إلى العربية بقلم (الدكتور) زكي نجيب محمود، وحياة المسيح "لربنان" ومقالات شوبنهور وأكثر التراجم الإنجليزية ملاءمة للقارئ العادي هي ترجمة سودرز.

ومن الكتب الحديثة الشيقة كتاب طريق الآلهة "لاتكنسون" والتطور المبدع "لبرجسون" وله أيضا "منبعا الدين والأخلاق" ولهما ترجمة عربية

و"ج. هـ. برستيد" لـه فجـر الـوعى و"لـويس بـرون" لـه العـالم المـؤمن، و"جـون ديـوى" لـه كتـب عديـدة أهمهـا الطبيعـة البشـرية والسـلوك، و"لأرنسـت ديميـه" فـن التفكيـر، و"لهـافلوك إبليس" كتـاب رقصـة الحيـاة و"لفريزر" كتاب الغصن الذهبي، و"لجبران خليل جبران": حياة المسيح، و"لجوليـان هكسـلي": ديـن بـلا وحـي ومطلـب السـعادة "لبرتواندراسـل" و"جورج سانتيانا" له: مذهب الشك وعقيدة الحيوان، ومخاطرات عقلية "لبويتبد".

ولا أحـب أن أكـرر أن هـذه ليسـت إلا مجـرد أمثلـة رائعـة للمكتبـة السائغة في أفق المكتبة العامة

وأسـهل مرجـع يُمكـن الرجـوع إليـه فـي هـذا الصـدد هـو كتـاب (فـن اختيار الكتب) لهيلين هيز وهو الذي سبقت الإشارة إليه والذي كان جل اعتمادنا عليه في هذا الباب.

وها نحن قد طوفنا بالمعرفة، كما فعل بروميثيوس القديم، كما تخيله أحد مشاهير الكتاب المحدثين في الغرب،حينما أزمع الرحيل ليكشف عن عوالم جديدة فأقلع بشراعه يصارع موج البحار المظلمة، وبعد صبر ولأي وعنـاء لاحـت لـه بشـائر نـور هـاد ومـا إن اتجـه نحـوه حتـى هبـت عواصف البحر الثائر.

وصارع البطل ولكن جبال الموج ما لبثت أن أطبقت بقوتها الصماء العارمة عليه وعلى رجاله. وكان ذلك حينما صار أقرب ما يكون إلى النور المبشر بعالم جديد.

وها نحن قد طوفنا بالمعرفة في تلك الجولة السريعة الخاطفة لا لنكشف عن عوالم جديدة إنما لتذكرها لعلها توحي بإرتياد آفاق منها. ومع تنبيهنا إلى أننا بصدد العامة لا الخاصة فقد لا نعدم ما تثيره هذه الإشارة الموجزة من سخط الخاصة في كل فن.

ولولا أن الغاية هي تنبيه إلى ما لدينا من نقص في الفهارس والمراجع في المكتبة العربية لخشينا بحر معرفة هؤلاء الخاصة حين يثور.

وهنا أشفق على أنفسنا من مصير البطل القديم!

المراجع

1- A. L. A.
Post-war standards for public libraries, 1943.
2- Bostwick, A. E.
American public library, Appeiton, 1929.
3- Branscomb. H.
Teaching with books, AL A. 1940.
4- Bryson, LL.
Adult education, American Book Co., 1936.
5- Bryson, L.L'
The new Prometheus, Macmillan, 1941.
6- Cartwright, M. A.
Adult education, Britarica, 14th ed., vol. 1.
7- Chancellor, J. M.
Helping adults to learn, AL A., 1939.
8- Columbia University, School of Library Service, Syllabus for study of college & University library service.
9- Columbia UA, S.L.S.,
Syllabus for study of fun damentals of library service.
10- Harvard University
General education in a free society, Har. Un. Press, 1945.

11- Haizeltine, A.l.
Library work with children Wilson, 1917.
12- Humble, M.
Rural America reads, Amer. Ass, for adult educa-tion, 1938.
13- Joekel, CR
The Government of American public library, A.LA 1935.
14- Thoson, A.
The public library, a people's universally, Amer. Ass, for adult education, 1938.
15- Jones. E. K.
Hospital libraries A. LA. 1939.
16- Lamar. J
The secondary school library (Bulletin, National of Secondary Education Monograph 17.). 1932.
17- Learned, W. S
The American public library and the diffusion of knowledge, Hartoest, 1924.
18- Lyle, G. R.
The administration of college library, Wilson 1044.
19- Lynd R.S. Helen Lynd.
Middletown in transition, Harcourt, 1937.
20- Mc Colvin, L. R.
How To the library, National Book League, Cambridge University Dress 1948.

21- MC Culvin, L, R.
How to use books. Notional Book League, Camb. ridge Un. Press, 1948.
22- Donald, O
Educational motion pictures & libraries, A.L.A. 1024.





الفهرس